الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام

١٢ ق هـ — ٤١ هـ

بقلم
الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
تلغرافياً : كتالبان – بيروت
ص ب ٣١٧٦
بيروت – لبنان

الطبعة الأولى – ١٩٧٣

الحياة الأدبية في عصر صدر الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

أحمدك اللهم ، وأستعينك ، وأتوكل عليك ، وأشهد بك . وأصلي على محمد أفصح العرب ، وحجة البلاغة والأدب ، من أدّبه ربه فأحسن تأديبه ، وأجرى على لسانه جوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، وروائع البيان .

وبعد : فهذه دراسات في الأدب الإسلامي تتناول عصراً من أزهى عصوره ، وعهداً من أنضر عهوده ، وحقبة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً ، ولم تر الإنسانية لها نظيراً ، كانت ربيع الزمان ، وفخر الإنسان ، وكانت درة في تاريخ البشر ، لما لها في حياتهم من جليل الأثر ، وعظيم الخطر .

عصر وما أجله عصراً أطلع من ظلام الدهور فجراً وفجراً فأشرقت به الأيام ، ومشت تتيه بجلاله الأعوام ، واستظل الناس بظله وما أعزه ظلاً ، ولقوا في رحابه أمناً وخيراً وسلاماً وعدلاً .

عصر وما أعظمه في مقاييس العقل والزمن من عصر عاش الإنسان في

رحابه ينتقل من مجد الى فخـر الى نصر ، متطلعاً الى أعظم مثل الحياة ، وأكرم قيم الفضائل ، يضيء طريقه دين القيمـة ، ويهديه الى غاياته الرفيعة شريعة كريمة ، ويفجر له ينابيع الخير وحيٌ ينزل من السماء ، وكتاب تهتز ببلاغته أرجاء الصحراء ، وعقيدة ترشده الى التوحيد ، والى كل جديد والى طريف من التقدم وتليد .

عصر ازدهى بنزول القرآن ، ونضره الله بمعجزة الدين والأدب والبيان ، وشاهد ما شاهد من جلال الرسالة وعظمتها ، ومن فخار الدعوة وعزتها ، ومن مجد الدولة الإسلامية وقوتها ، وكان معجزة من معجزات الخالق الأكرم وآية من آيات صدق الرسول العربي الأعظم .

وماذا أقول عن الأدب في عصر الرسالة والرسول ، عصر الفرقان والحديث ، والوحي الموصول ؟ وماذا يستطيع الناقد أن يدلي به في ذلك الحديث العظيم من رأي وحكم ؟ وسبحان الله أحكم الحاكمين ، ورب الخلق أجمعين .

إن كل ما أستطيع أن أقوله عن هذه الدراسات التي يضمها هذا الكتاب أنها تستهدي القرآن هداه ، وتستظل بما فيه من خير وحق وعدل وصواب ، وحسبي هذه الكلمات ، فهي بالعجز أنطق ، وهي من نور الدين وفجر الإسلام تبزغ وتشرق ؛ ومن الله وحده كل خـير مأمول ، وهو وحده المسئول أن يلهمنا الرشد ، ويهدينا ســـواء السبيل ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . محمد عبد المنعم خفاجي

تمہید

(١)

لغة كل أمة لابد أن تتعاورها ظواهر الحياة ، وتخضع لنواميس الوجود وتمر بها ألوان شتى : من ضعف الى قوة ومن جمود الى حركة وتوثب ، ومن انتكاس الى تقدم وازدهار .

فقد يطوف بها من الأحداث والعواصف ما يبعث فيها الموت ويسلط عليها الفناء . وقد تواتيها أسباب الحياة يقظة ، وعناصر القوة والنماء مشبوبة . ذلك أن اللغة ترجمان القلوب ، وحديث النفوس ، والأداة المعبرة عما تنطوي عليه الضمائر من فكرة او خاطرة .

ولقد تأثرت لغة العرب أعمق التأثر بالإسلام الذي بدل كل شيء ، وغير السمات والخلائق لكل مظهر ، وقلب الحياة العربية من حال الى حال ، وحمّلها هي أعباء جديدة ، وناط بها رسالة مجيدة ، فانطلقت تؤديها في صبر واستجابة ، ومضت تنهض بها في سماحة ويسر ، متشحة ما اتصفت به هذه الرسالة من قوة وعظمة وجلال .

(٢)

ويُفتتح العصر الثاني من عصور الأدب العربي ، وهو عصر صدر الإسلام ،

ببعثة محمد صلوات الله عليه ، ودعوته وهو بمكة قريشاً والعرب والناس كافة الى الإسلام عام ٦١٠ م ، وينتظم ما بعد ذلك مما امتد من عهد الرسول بمكة والمدينة[١] وعهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن بن علي، وينتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين ، وقيام دولة بني أميـة على يد معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ ومدته ثلاثة وخمسون عاماً هجرياً .

وهو من أعظم العصور في التاريخ الاسلامي أثراً ، وأكثرها في حياة العرب والمسلمين خطراً ، فقد بدأت فيه وازدهرت دعوة الاسلام دين البشرية الخالدة ، ومنقذها من ضلال الجهل والسفه والاستعباد والطغيان والرق الفكري والبشري والاجتماعي وهاديها الامين الى شاطىء الامن والسلام والنور والحرية والمساواة .

وناهيك به بعد ذلك عصراً ازدهرت فيه اللغة ، ونبه فيه شأن الادب ، وصار فيه للسان العربي والشعب العربي السيادة والفوز والغلبة في شتى الارجاء والامصار .

وكيف لا وقد افتتح بأروع جهاد عرفته الانسانية ، وبأعظم دعوة وصلت الى الارض من السماء ، وبرسالة لم يعرف التاريخ قط لها نظيراً ؛ رسالة كانت حرباً على الجمود البشري واضطهاد الانسان لاخيـه الانسان وعبودية القوي للضعيف وتسخيره له ، رسالة فتحت صفحة جديدة في حياة العالم ، وأحالت ظلام الحياة ضياء ونوراً وظلمها عدلاً وأمناً وحربها سلاماً وحرية .

ومن أولى من محمد بن عبد الله صلوات الله عليـه بأن يرفع في العالم منارة السلام وراية المدنيّة وأن يصـل الارض بالسماء ، ويسعى بالانسان ليبلغ

---

(١) هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة فدخلها في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول ، وله ثلاث وخمسون سنة (٢١١ التنبيه والاشراف للمسعودي) .

ما ينتظره من حضارة باهرة ، وحرية نادرة ، وحياة زاهرة ، فيها الامن والامل والرجاء ؟ .

هـذا وعصر صدر الاسلام مستقل في رأينا عن العصر الاموي لاختلاف المؤثرات التي أثرت في الادب العربي في هذا العصر عنها في عصر بني أمية ، وعلى ذلك سار كثير من الباحثين ، ورجال الادب ، وإن كان بعض الباحثين يجعل العصرين عصراً واحداً يبتدىء بانبثاق فجـر الدعوة النبوية ، وينتهي بانتهاء الدولة الاموية عام ١٣٢ هـ .

(٣)

والذين شهدوا هذا العصر العظيم من الشعراء في رأينا يسمون المخضرمين[١]، يقول ابن رشيق : « طبقات الشعراء أربع : جاهلي ومخضرم الذي أدرك الجاهلية والاسلام ، ومحدث .. ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدريج ، وهكذا في الهبوط الى وقتنا الحاضر[٢] .. » .

أما الجاهليون فأمرهم مشهور ذائع ، وهم الذين نشأوا في جزيرة العرب قبل الاسلام من الشعراء والخطباء والبلغاء وأرباب الفصاحة واللسن والبيان .

وأما المخضرمون[٣] فاذا تركنا حديث الاشتقاق اللغوي فان الغالب على

---

(١) وقل ان يطلق ذلك الاسم على البلغاء والادباء والخطباء ، مع ان مثل هذه الفنون الادبية هي اخت الشعر وشبيهة به في كثير من خصائص الادب .

(٢) ٧٢ – العمدة لابن رشيق طبع عام ١٩٢٥ .

(٣) من الخضرمة ، يقال أذن مخضرمة اي مقطوعة ، فكأن الشاعر انقطع عن الجاهلية الى الاسلام ، وقيل : أسلم قوم في الجاهلية على ابل قطعوا آذانها فسمي كل من ادرك الجاهلية =

من عاش في هذا العصر ان يكون مخضرماً إذ يغلب ان يكون قد ادرك الجاهلية والاسلام .

وأما الذين نشأوا في الاسلام وتأدبوا بآدابه ، وقالوا الشعر متأثرين بالعوامل الجديدة التي نشأت مع الحياة الاسلامية ، **فهؤلاء اسلاميون** ، يغلب عليهم ان يكونوا قـــد عاشوا في دولة بني أمية واستظلوا بظلها . اذ من الثابت ان كثيراً من الشعراء الذين تأثروا بالاســلام ومبادئه ، قد بهرتهم بلاغة القرآن وفصاحته ، فانقطعوا عن قول الشعر ، وعقمت السنتهم وبلاغاتهم عن إنشاده ، ولم يستمر على صلة بينابيعه الثرة إلا هؤلاء الذين بعدوا عن روح الاسلام ولم يتأثروا به ، وعاشوا في عزلتهم في البادية فلما سكتت عنهم هـذه الروعة قليلا ، بالفهم لهذه البلاغة المعجزة ، وبخضوعهم لآثار بيئتهم وحياتهم الجديدة ، بدأوا في نظم الشعر ، ولم يعودوا إليه إلا وقد انتهى هذا العصر ، وبدأ عصر جديد هو العصر الاموي الحافل .

= والاسلام مخضرماً . وزعم هذا القائل انه لا يكون مخضرماً حتى يكون اسلامه بعد وفاة النبي وقد ادركه كبيراً ولم يسلم ، قال ابن رشيق : وهذا عندي خطأ لان النابغة الجعدي ولبيدا قد وقع عليهما هذا الاسم (٧٢ – ١ العمدة ط ١٩٢٥) .

وقال ابو الحسن الاخفش : هو من قولهم ماء مخضرم اذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والاســلام مخضرماً كأنه استوفى الامرين « ٣٠٤ : ٢ المزهر ، ١٧٢ : ١ العمدة » .

وحكي : شاعر محضرم بالحاء مأخوذ من الحضرمة وهي الخلطة ، لانه خلط الجاهلية والاسلام « ٣٠٥ : ٢ المزهر ، ١٧٣ : ١ العمدة » .

الفصل الأول

مدلول الأدب الإسلامي

(١)

الأدب الاسلامي :

ينتمي الى الاسلام ويستمد جميع أصوله منه ويتأثر به وحده في كل شيء في ألفاظه وأساليبه ، في معانيه وأخيلته ، في صوره ومرائيه ، في أفكاره وثقافته ، فهو أدب يستمد أفكاره وقيمه من الاسلام ، وينسج على منوال القرآن الكريم ، وله رسالة كبيرة وبخاصة في عصرنا الحاضر ، فهو يعمل على إيجاد يقظة إسلامية ووعي إسلامي ، ويقف في مواجهة الافكار الغربية الموجهة .

والادب العربي منذ ظهر الاسلام حتى اليوم يمكن أن يقال عنه : إنه أدب إسلامي ، لان جميع الذين ينشئونه عرب او من سكان البلاد العربية وأغلبهم مسلمون . ولكن الادب الاسلامي بالمدعى الخاص يطلق على الآداب العربية بعد ظهور الاسلام الى نهاية عصر الامويين عام ١٣٢ هـ .

وجميع الآراء تتفق في أن نهاية عصر الادب الاسلامي هي نهاية حكم بني امية ، وإن كانت الآراء في بداية هذا الادب تختلف اختلافاً كبيراً :

فريق من الدارسين يذهبون الى أن الادب الاسلامي ظهر منذ بعثة الرسول صلوات الله عليه ، واستمر يؤدي رسالته طيلة عصر الرسول وعصر

الخلفاء الراشدين وعصر بني امية ، لان نزول القرآن غير من مجرى الادب العربي تغييراً خطيراً وكبيراً وواضحاً ، وكل من أنشأ ادباً بعد البعثة المحمدية فقد تأثر بالقرآن والاسلام تأثراً ما على نحو من الانحاء ، ومن هؤلاء طه حسين « المجمل في الادب العربي » ، و « المفصل في الادب العربي » ، واحمد حسن الزيات في « تاريخ الادب العربي » والسكندري وغيره في كتاب « الوسيط » .

وفريق من علماء الادب يرون أن الادب الاسلامي لم يظهر على الحقيقة إلا على أيدي الاجيال التي ولدت ونشأت وعاشت في الاسلام ويغلب على هؤلاء أن يكونوا قد عاشوا في العصر الاموي (٤١ — ١٣٢ هـ) لانهم لم يتأثروا إلا بالاسلام ، ولم يعيشوا إلا فيه ، ولم يكن بينهم وبين حياة الجاهلية صلة من الصلات فشعراء العصر الاموي إسلاميون وكتابه أدباء ، وهذا ما سرت عليه في كتابي: « الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام » ، و « الحياة الادبية في عصر بني امية » وغيرهما . وكذلك ما سار عليه جورجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » وكارل بروكلمان في كتابه « تاريخ الادب العربي » وشوقي ضيف في سلسلة كتبه عن تاريخ الادب العربي ، ومحمود مصطفى في كتابه « الادب العربي وتاريخه — الجزء الاول » وغيرهم . وهؤلاء يقصدون الادب الذي ظهر في عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين على أيدي طبقات المخضرمين ممن أدركوا الجاهلية والاسلام وعاشوا فيهما وتأثروا بمختلف المؤثرات التي أثرت في أدبهما فأدبهم هو أدب المخضرمين . أما أدب شعراء وكتاب العصر الاموي فهو وحده الادب الاسلامي بهذا المفهوم الخاص فيه .

أما الفريق الاول من الدارسين فيطلق على شعراء عصر صدر الاسلام الى قيام دولة بني امية مخضرمين وإسلاميين على السواء .

(٢)

ومن هنا يتضح الفرق بين المخضرمين والاسلاميين . فالمخضرمون هم الذين شهدوا الجاهلية والاسلام وعاشوا في ظلال الرسول العظيم ، وظلال خلفائه الراشدين ؛ والاسلاميون هم الذين شهدوا العصر الاموي لانهم نشأوا في الاسلام وتأثروا به وحده على الرأي الثـاني في معنى الادب الاسلامي من أنه أدب الادباء الامويين وحدهم .

أما من الرأي الاول فالمخضرمون اسلاميون ، والاسلاميون – ممن شهدوا ظهور الاسلام الى نهاية الخلفاء الراشدين – مخضرمون .

الحياة العربية بين الجاهلية والإسلام

جاء الاسلام والعـرب امة بدوية وقبائل رحالة ، ليس لها من وسائل العمران واسباب الرخاء ما يحملها على تبحر في علم ، او تبصر في دين ، او تفنن في تجارة او تأنق في زراعة ، او تدبر في سياسة .

كانت الخلافات والخصومات والحروب بينهم لا تهدأ ، وكانوا في سفه من العقل وجهل ويا له من جهل ، فالطباع جافة ، والاخلاق شرسة ، والتفكير والخيال راكدان .

وقد ظهر أثر حياة العرب في لغتهم ، فكانت اغراضها لا تعدو اغراض المعيشة البدوية ، ووصف مرافقها ، واثارة المنازعات والخصومات بين طوائفها .

وفي خلال هذا الظلام كان الله عز وجل يشرق بنوره على هذه الصحراء الجرداء ، لتنبت الخير والعزة والكرامة ، ولتقود الإنسانية كافة الى مجال الشرف والمجد والمدنية والنور ، وكان الله عز وجل يتعهدها بالرعاية ، فأذن ان تجتمع العرب قبيل الاسلام في شبه وحدة ، توحد بينها ، وكان روح الله يتنسم بين ارجائها ليوقظها من سباتها العميق ، وينبهها لضرورة الوحدة والتعاون على الخير في حياتها ومعاشها ولغتها ، وظهرت آثار هذه الوحدة القريبة فيما بينها في عدة مظاهر :

١ – ظهرت في الاسواق التجارية .

٢ – وفي الرحلات التجارية الى اليمن والشام وفارس ومصر .

٤ – وفي الاذعان لحكومة الاشراف والسادة من قريش وتميم وغيرهما ، مما هيأ لهم الاجتماع في مكان واحد ، وتحت لواء واحد .

وظهر الاسلام مؤيداً بالحجة ، ومؤيداً لهذه الوحدة ، وداعياً الى الله والى الحق وصراط مستقيم ، فجمع العرب تحت لواء واحد هـو لواء القرآن ، وحول قائد واحد هو صاحب الرسالة وبطلها المعْلـَم وصار للعرب من ذلك جامعة سياسية كبرى تضم شتاتهم ، وتجمع على الله والخير قلوبهم ، وتوحد بين المسلمين كافة برباط الحق والاخاء والعـدل والمساواة . وخلف الخلفاء رسول الله في قيادة الامة ، ونشر الدعوة ، وفتح الامصار ، وهداية الانسانية الى الله ، وفتحت مملكتا كسرى وقيصر ، ثم امتد نفوذ المسلمين الى كل مكان ، واختلطوا بأهل الممالك المفتوحة ، وحدثت في حياتهم الفكرية والادبية احداث خطيرة ، سوف نتحدث عنها بالتفصيل .

رسالة الإسلام

(١)

الاسلام ديننا الخالد العظيم ، ورسالة السماء الى محمد بن عبد الله ﷺ ، والشريعة التي نزل بها كتاب كريم ، هو القرآن دستورها وناموسها الاكبر .

وهو الدين الذي نزل هدى ورحمة للعالمين ، وأحدث تطبيقه لأول مرة في مكة ثم المدينـة ثم جزيرة العرب نفسها على يدي الرسول الأطهر نهضة لم تشهدها الإنسانية من قبل ولا من بعـد ، واصلاحاً لم يكن يحلم به بشر ، ولا زلنا حتى اليوم لا نستطيع أن نصل الى مداه الكبير ، ثم استمر في مده العظيم ، فطبقه الخلفاء الراشدون في البلاد التي دخلت في ظـلال الاسلام ، وانضوى تحت لوائه الملايين في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، فرحين مهللين مكبرين ، مستبشرين بعهد من الحرية والاخاء والتعاون والمساواة والعدالة والرفاهية لبني البشر جميعاً ، وعاملين على تأثيـل حضارةومدنية جديدة لم تشهدها البشرية من قبل .

دين جارى التطور في كل مكان وزمان ، وجابه الطغيان وانتصر عليه في كل بيئة وعصر ، ولم تقف أمامـــه مشكلة من المشكلات ، ولم يزعم

منصف في اي جيل ان منطق الاسلام لا يجاري العقل والحياة ، ولم يستطع أصحاب الدعوات الجديدة أن يزعموا أن دعواتهم على ما هيء لها أحياناً من دعاية وقوة ومساندة النفوذ او الجاه او المال قد نالت بعض ما ناله الاسلام في سنوات معدودات ، من ثقة الجماهير وإيمانها به ، واقبالها على اعتناقه والدخول فيه .

دين لا زالت أصوله ودعواته حلم البشرية بعد ما وصلت إليه من تطور وتقدم وحضارة ، ولا زالت أصوله الفكرية والروحية تحمل الى العالم الأمن والسلام والرخاء ، وهو بعد جديد في كل وقت ، عظيم في كل حين ، جليل في كل عين ، رفيع في كل عقل .

دين وضع أصولاً خالدة لاصلاح جميع مجالات الحياة ، ونواحي النشاط الانساني ، وسبق « الديكارتيين » ، الى تقديم الشك أمام كل بحث ، وترك التقليد ، والى الايمان بما يؤدي إليه الدليل ، كما سبق « بيكون » الى المذهب العلمي ، وسبق فلاسفة الاجتماع الى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الانسانية حداً ، من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حداً يمكن أن يصل إليه الانسان من معارف ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية فحسب ، دون النظر الى التعديلات الاقتصادية والمادية للأشياء ، ووحّد بين الأجناس والعناصر ، والألوان ، ودعا الى أخوة بشرية عامة لا فضل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وجمع الكثير من الأمم والشعوب تحت ظلاله ، مما عجز عن تحقيقه كل القواد والدول . . هذا مع العدالة في الحكم ، ومع الايمان بالحرية والشورى والاخاء والمساواة وتطبيقها ، ومع العمل على نشر الأمن والرفاهية والوئام والسلام بين بني البشر جميعاً .

لم يقف الإســـلام وأصوله ومبادئه الكريمة حائراً أمام أية مشكلة من مشكلات الحياة في كل عصر وكل بيئة ، بل وجد الحلول العادلة لكل ما جدَّ وما يجدُّ على سطح الأرض من جديد .

كانت رسالته دائماً التبشير بقيم إنسانية رفيعة ، لم يقل أبداً وفي أحرج الأزمات والمحن : « إن الغاية تبرر الوسيلة » ، ولم يزعم الإسلام أنه وصي على البشر ، وأنه مستعمر في الأرض ، بل دعا دائماً إلى الإيمـان بأصوله كحل أساسي لجميع مشكلات المضطهدين والمستعبدين والذين وقف بهم التأخر عن متابعة سير الحياة ، نادى بالحرية لكل الناس ولكل الشعوب ، دعا إلى أن تتولى كل أمة أمور نفسها في ظلال مبادئه ودعواته وأصوله ، قاوم كل من وقف في سبيل دعوته لأن من يفعل ذلك فهو يقف في وجه الحيـاة نفسها ليؤخر سير الزمن .

حل جميع العصبيات وأبطلها ، وكل المشكلات وأزالها ، وجميع العقد النفسية والروحية عند جميع الناس ووضع مكانها حب الخير والتعاون والرحمة وحب الوئام والسلام والبر والشفقة . . وهذب العواطف والمشاعر الإنسانية وطهرها وسما بها ، وجمَّل الحياة أمام الناس وجعلها تعاوناً ومشاركة وتبادلاً للمنافع والخبرات ، قابل الإسلام آلاف الدعوات والمبادىء والأفكار الجديدة ومع ذلك لم تستطع إحداها أن تجاريه في حيويته وبساطته ومثاليته وعظمة مبادئه وأصوله وواجه آلاف الطغاة ومع ذلك لم يستطع واحد منهم أن يقف سيره المحتوم ، او يعطل رسالته المنـــيرة ، او ينتصر على مبادىء الإسلام الجليلة العظيمة .

وحملتْ شعوب الإسلام دائماً الى العالم والى الحياة في كل العصور والأجيال ،

وبفضل دينهم العظيم ، رسالة التقــدم والحضارة ، رسالة الحرية والعدالة ، ورسالة المحبة والسلام والاخاء والشورى بين الناس جميعاً . ودخل الناس في دين الله أفواجاً في كل عصر وجيل وفي كل زمان ومكان .

(٣)

وتتلخص أصــول الإسلام في العقيدة الإسلامية ، وفي المبادىء الأساسية للمجتمع الإسلامي ، وفي نظام العبادة للمسلم ، وفي الأسس التي يبنى عليها كيان الأمة الاسلامية ، وفي أفكار الاسلام الأساسية في خدمة الحياة نفسها .

أما من حيث **العقيدة** فهي عقيدة إنسانية تؤمن بالله وبرسالة محمد وبرسل الله جميعاً لا تفرق بين أحد منهم .

ومن حيث **نظام العبادة للفرد المسلم** فهــو يتلخص في الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج .. الى وجوب اعتناقه للفضائل الانسانية الأخرى من صدق ووفاء ورحمة وشفقة وإيثار وبر وأمانة إلخ ..

ومن حيث **مبادىء المجتمع الأساسية** في الاسلام فهي تقوم على : الشعور بالمسؤلية — والتعاون التام — والعدالة الكاملة والتزامها — والمساواة بين جميع أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات — ونشر الرخاء بين جميع الناس — ومساعدة الدولة لكل محتاج بقدر ما يسد حاجته دون ما تأخير — والسهر على خدمة المجتمع وخــدمة الأمن بكل وسيلة — ومحاربة كل ألوان الفساد الاجتماعي والرذائل الاجتماعية والخلقية والقضاء عليها ، والى غير ذلك من مبادىء ليس هنا مكان شرحها .

ومن حيث **الأسس التي يبنى عليها كيان الأمة الاسلامية** فتتلخص في :

الشورى – السلام بين طبقات الأمة – العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي – نشر التعليم وجعله حقاً لكل فرد – الى آخره .

أما **أفكار الاسلام في خدمة الحياة** فهي ترجع الى مبادئه في تحرير الارقاء والمستعبدين والمستضعفين ، وفي نشر السلام ، وفي تبادل التجارة بين أمم الأرض . وفي نشر الثقافة والحضارة ، ومساعدة الأمم المتخلفـــة ، وفي الانتصار لكل ضعيف ومظلوم ، وفي العمل على تقدم الحياة وإثرائها بكل جديد نافع ومبتكر صالح .

حضارة الإسلام

(١)

إن الاستعمار الذي وفد على العالمين العربي والإسلامي ثم رحل عنهما ، وطالت مدة إقامته او قصرت في بعض الدول والأمم والشعوب ، لم يكن وجوده عبثاً في بلاد الاسلام ، إنه أدى مهمته كاملة . . قام بواجبه خير قيام ... نفذ كل مخططاته كما أرادها ورسمها .

لقد عمد الاستعمار خلال إقامته بيننا الى تخريب العالم الاسلامي تخريباً كثيراً وكبيراً . . شكك في الدين ، زعزع النفوس المؤمنة المطمئنة الواثقة بربها وإسلامها، طعن في العقيدة والأخلاق والآداب والتراث والنظم والشرائع الإسلامية ، نشر الموبقات في العالم الإسلامي ، مما أدى الى إفساد الأخلاق وانهيار القيم والمثل التي اعتز بها المسلمون عصوراً طوالاً، نقل العرب والمسلمين من حياة الإسلام وحضارته الى حياة الغرب ومدنيته ، وبذلك صار الإسلام غريباً في بلاده ، ديناً بلا دولة ولا مجتمع ولا دعاة ولا حملة له . الى ما نهبه الغرب من ثروات المسلمين الفكرية والحضارية والاقتصادية .

وبذلك كله أصبحت حضارة الاسلام غريبة على المسلمين المعاصرين ، لأنهم لم يعيشوا في ظلالها ، ولم يروا النموذج الفعلي الانساني لها .

هذا كله الى ما صنعه الاستعمار من نشر ثقافاته وتخريج طبقات من المتعلمين تؤمن به اكثر مما تؤمن بنفسها وبلادها وتراثها وحضارتها .

وتبع ذلك ضعف نفوذ علماء الاسلام ومحاربتهم في بلادهم ، وعجزهم عن الوقوف موقف الصامد المدافع عن الشريعة ، لأن وسائل الاعلام كلها اصبحت ضدهم ، والشعوب الاسلامية جنـــدت لمحاربتهم بأيدي أعوان المستعمرين وأذنابهم . وأدى ذلك كله الى عدم استطاعة العقل الاسلامي المعاصر تقـديم الثقافة الاسلامية في ثوبها الصحيح الصادق العميق للشباب ، وإلى انتشار مبادىء الغرب ومذاهبه الهدامة بينهم ، وإلى كل ما يعيش فيه المسلمون اليوم من علل وأمراض وضعف وتأخر . .

(٢)

ولقد اصبح الذين يفاخرون بحضارة الاسلام غرباء عن الناس ، وكثر المتهجمون على شرائع الاسلام وحدوده ونظمه وتعاليمه ، فما السبيل الى علاج ذلك ؟ .

إن استفحال الخطب ، واستشراء الداء وعزة الدواء . . لتوجب على المسلمين أن يعودوا الى الاسلام ، وأن يعملوا به وأن يطبقوه وأن يتمسكوا به . . لأن ذلك هو أولاً طريق النجاة ، وهو ثانياً الوسيلة لبنـاء حضارة إسلامية جديدة ، وهو ثالثاً السبيل الى بعث القوة الذاتية في نفوس المسلمين ، وهذه القوة هي التي تمكنهم من مقاومة الصهيونية والاستعمار وكل المبـادىء الهدامة التي تنتشر اليوم في صفوف المسلمين وشبابهم ، وهو رابعاً الخطوة

الأساسية اللازمة لبناء كيان إسلامي عظيم ومجد حضاري للمسلمين المعاصرين.. ولدعم مكانة العرب والشرق الاسلامي في العالم من جديد .

لا سبيل أمامنا إلا العودة الى الدين ، والتزامه ، والتمسك به ، والرجوع إليه ، والحرص عليه، وتنفيذ كل ما جاء عن الله، فذلك هو العروة الوثقى ، والصراط المستقيم ، والطريق السوي ..

(٣)

ولماذا يعيب المسلمون المعاصرون حضارة أجدادهم المسلمين الاول ؟

إنهم لا يعيبونها عن فهم ودراسة وثقافة واسعة بتاريخهم .

بل إن ثقافة الغرب وأفكاره وتعاليمه هي التي تنطق من أفواههم ، وتصيح على ألسنتهم ، وتقول كذباً وتفتري على الله والدين والاسلام والحق باطلا . .

هبوا أننا خيرنا بين أن نعيش في حضارة إسلامية، او أن نعيش في ظلال حضارة غريبـــة ، حضارة القوم الذين عاشوا بالأمس في بلادنا مستعمرين متكبرين متجبرين ، واستذلوا كبرياءنا وتاريخنا ، فماذا نختار ؟ .

تعالوا أيها المفكرون لنحكم بين الحضارتين . . ولنوازن بين المدنيتين ، ولنقول كلمة الحق في الامر .

لا جدل في أن حضارة الاسلام تقوم او ترتكز على التوحيد والإيمان والاسلام والطاعة لله رب العالمين ، وتلك حقيقة لا يمتري فيها مكابر .

أما حضارة الغرب فهي حضارة الإلحـــاد والكفر والشرك والزندقة

والعقلانية والعلمانية ، حضارة المادية والوجودية والصهيونية ، وما الى ذلك كله من مذاهب الإفك والضلال .

حضارة الإسلام تقوم على مبادىء منزلة من السماء ، أما حضارة الغرب فليست من المسيحية ولا اليهودية في شيء ، إنما هي أخلاق مستمدة من الارض والمصلحة ومن نظريات كافرة جاحدة ، مثل — الغاية تبرر الوسيلة — ومثل — القوة فوق الحق — الى ما تتسم به في أعماقها ، من أثرة وأنانية وحب صارخ للذات . . انها مزيج من المكيافيلية والوجودية والمادية والصهيونية ، وغير ذلك من مختلف مذاهب الضلال .

إن حضارة الاسلام حضارة الطمأنينة النفسية والسعادة الروحية . أما حضارة الغرب فهي حضارة القلق والحيرة والانتحار والخبل العقلي ، حضارة السادية ، وحضارة الهيبية ، وحضارة الخارجين على كل عقل ومنطق وفكر .

نسبة الجرائم في الغرب كبيرة وفي بلاد الاسلام قليلة ، لأن الدين يملأ الفراغ الروحي في نفوس المسلمين مع ما هم عليه من بعد عن الدين ، أما الإسلام فيضمن السلام النفسي للمسلم ، وهو اعظم الشرائع صلاحية للتطبيق[1].

حضارة الاسلام تجمع بين المبدأ والتطبيق ، أما حضارة الغرب فهي حضاره الدعاية والاعلان .والكلام المنمق الذي يقال ، سواء صلح للتطبيق أم لا ، وسواء التزم دعاته به أم لا . . .

حضارة الاسلام حضارة الصدق والحقيقة والوضوح والصراحة ، أما حضارة الغرب فمبنية على الكذب والدعاية والاعلان لا غير ، وهي حضارة

(١) فرنسا على سبيل المثال — تنفق ٤٧٪ من ميزانيتها الصحية على مكافحة الأمراض الناتجة عن الخمور كما نشرت ذلك جريدة « لوموند الفرنسية » .

نفاق ومظاهر وحضارة أزياء وقوانين تقيد الإنسان وتحجر على حريته ولا يستفيد منها شيئاً .

حضارة الإسلام حضارة الشرف والعفة والانساب المصانة .. أما حضارة الغرب فهي حضارة الجسد والشهوات المباعة والانساب المجهولة، وهي العري، وهي اللذة الجنسية، وهي الفتك بكل فضائل الإنسان المثالي، وهي الموبقات كل الموبقات ما ظهر منها وما بطن .

حضارة الإسلام حضارة النظافة والطهر للفكر والروح والنفس والخلق والبدن . . أما حضارة الغرب فلا تمت الى ذلك كله بسبب ، انها حضارة الربا ، حضارة الخمر ، حضارة العبث ، حضارة اللصوصية والسرقة والنهب ، حضارة الصهيونية والصهيونيين ، حضارة التدخين والأمراض الجنسية . والاشلاء الممزقة للفضيلة ، حضـارة حانات الليل ، وموائد القمار ، وعربدة المعربدين وسكرهم، حضارة الجنس والشذوذ وكل ما يقشعر البدن من تصوره وذكره ، حضارة المصايف العـابثة التي تدين بالعري وتطبقه وتنفذه على أوسع نطاق .

(٥)

حضارة الإسلام هي حضارة المسلم الكامل ، إنسان الأرض العظيم المتطلع دائماً الى نور السماء ، حضـارة تقوم على المسؤولية الكاملة ، وعلى الأمانة الحقيقية ، وعلى الصلابة في الحق ، وعلى إيثار الخير والعمل به في كل مجال ومكان ، هي حضارة السلام والأمان والتعاون بين الناس ، والحب المتبادل بين الغني والفقير ، ووضع المال في خدمة المجتمع .

أما حضارة الغرب فهي حضارة الاستعمار والحروب ، وسلب ثروات

الأمم والشعوب، وحضارة الصراع بين الطبقات والمجتمعات والناس والشعوب، وحضارة الخلافات الدائمة بين الناس ، وحضارة المصارعة وصراع البقر وغير ذلك مما لا يخطر ببال .

حضارة الإسلام حضارة إنسانية ، الشعوب كلها تعيش في ظلهـا أسرة واحدة متساوية في الحقوق والواجبات ، والقانون الإسلامي هو الذي يدين له الناس جميعاً بالطاعة ، أما حضارة الغرب فهي حضارة إنسانية قوامها الظلم والعدوان والباطل والشر وحب النفس وحدها .

حضارة الإسلام حضارة الروح والنـــور ، وحضارة الغرب حضارة المادة والظلام .

وحضارة الإسلام هي دعوة المساواة والإخاء في جميع الالتزامات ، أما حضارة الغرب فهي حضارة المجتمعات الموزعة الأهواء والمشارب والنزعات والأفكار ، حضارة الطبقات المتفرقة المتشاحنة المتضاربة المتخالفة المتطاحنة على كل شيء ، وعلى لا شيء ايضاً في بعض الأحايين .

(٦)

حضارة الإسلام حضارة الجامع والجامعة، وحضارة الغرب حضارة السوق والسماسرة وحلقات المزايدة والمضاربة ، وحضارة رأس المال الذي لا يتورع عن كل الجرائم في سبيل مصلحته ، وحضارة المجتمعات المادية التي تخرج على كل فطرة وعقل وقانون ونظام وعرف[١] .

---

(١) كان الغرب يعيب على المسلمين « السبحة » ، ولكنه لم يجد من يعيب عليه « السيجارة » التي يحرق فيها الانسان كل عام أكثر من خمس دخله والتي تعرض الجسم لأخبث الأمراض وأسوئها.

المنهج في حضارة الإسلام يساوي الحقيقة ، والمناهج الغربية تعمل على تكوين مجتمعات لتعيش ، أما المنهج الإسلامي فيعمل على تكوين أمم لتحيا وتخلد وتصبح خليفة لله في الأرض .

والقرآن الكريم هو دستور المسلمين وقانون حياتهم ووجودهم وحضارتهم، أما الغرب فليس لحضارته قانون إلا القوانين الوضعية ؛ وهي لا تبلغ مبلغ الشريعة ، ولا تؤدي ما تؤديه الشريعة من أهداف وغايات .

حضارة الاسلام انتصرت بالحق وسادت وعملت للإنسانية ، أما حضارة الغرب فقد انتصرت بالباطل وسادت بالزور ، وعملت لنفسها وحدها .

حضارة الاسلام تفرض السلام وتدعو إليه، وحضارة الغرب تؤمن بالحرب وتحبذها وتسعى لها ؛ وتفتن في ابتكار آلاتها .

فروق بين الحضارتين لا حد لها ، ولا يمكن أن تكون معها موازنة؛ ومن الذي يوازن بين السماء والأرض ، وبين النور والظلام، وبين الحق والباطل ؟.

(٧)

الأساس الايديولوجي لحضارة الاسلام هو العقيدة الاسلامية وهو القرآن الكريم ؛ وهو أساس – لو تعلمون – عظيم .

التزام الحق في كل شيء والعمل به في كل موطن ، والايمان بأن الحق هو الله وهو الاسلام وهو القرآن وهو كل خطير وجليل من مثل الحياة وقيمها . والحق دائم وباق وخالد، وكذلك الاسلام دائم وباق وخالد ما بقيت الحياة.

وإذا كان الاسلام وحضارته كذلك فلماذا انتصرت حضارة الغـــرب وسادت وبقيت ؟ .

سؤال خطير والجواب عليه سهل بسيط .

إن حضارة الغرب انتصرت بالاسلام الذي عرفته في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وقبرص ويوم كان المسلمون سادة هذه البلاد ، وعرفته في المغرب والمشرق الاسلاميين في ظلال الحروب الصليبية ، وفي ظلال رحلات التجارة والسياحة في بلاد المسلمين .

وحضارة الغرب قد سادت حين غاب المسلمون عن إدراك حقيقتهم وذاتهم وشريعتهم ، ونبذوا كل ذلك وراءهم ظهرياً ، وأخلدوا الى النوم العميق .

وحضارة الغرب قد بقيت في ظل ضعف المسلمين وتركهم لمقوماتهم الاسلامية الحقيقية ، وذوبانهم في الغرب وأفكاره ومثله وثقافته .

واليوم الذي يستعيد فيه المسلمون الايمان بدينهم وتاريخهم وحضارتهم هو اليوم الذي سوف تركع حضارة الغرب ذليلة محطمة عاجزة عن السعي والحياة .

والغرب يدرك هذه الحقيقة ، وفلسفته ومنطلقه في العمل هو أن يقول للشرق ، او أن يقول للمسلم ما يقوله الشيطان له : نم ، نم ، نم ، إن عليك ليلا طويلا .

ولو استيقظ المسلمون ، وفتحوا عيونهم على حقيقة ذاتهم ، وعلموا أن الاسلام وحضارته هي ملاذهم الأوحد ، ولا ملاذ لهم سواه؛ لو أنهم قد فعلوا ذلك لتغير حينئذ وجه الحياة .

أثر الإسلام في حياة العرب

أثره في حياتهم الدينية :

غيّر الاسلام حياة العرب الدينية تغييراً ضخماً كبيراً لا يماثله تغيير آخر؛ فأبطل الوثنية والشرك ، وقضى على عبـــادة الأوثان والاصنام ، وحارب العبادات الزائفة كعبادة النار والنجوم والكواكب والملائكة ؛ ونفى ان يكون هناك شركاء لله في العبادة ، او أن يكون هناك وسطاء بين العبد وربه ، ودعا الى التوحيد المطلق ، والايمان الحق ، والاسلام الخالص ، وإلى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ودعا العرب وغيرهم الى الايمان بهذا الدين الالهي العظيم ، ونبذ ما هم عليه من ضلال وباطل ووهم ، ومن تحريف لشعائر الله وكتبه ، ولعقيدة التوحيد الصافية الخالصة .

وحارب الاسلام التقليد وذم المقلدين ، وحـــرر الانسان من الأوهام والخرافات والاساطير والعقائد الزائغة والشرائع الزائفة ، والاديان الباطلة .

وبذلك صار الدين لله وحده لا شريك له ، وصارت العبادة خالصة لله رب العالمين ، سبحانه قيم السموات والارض ومن فيهن ؛ بيده الخير والشر ، وهو على كل شيء قدير .

أثره في حياتهم الاجتماعية :

غيّر الاسلام حيـــاة الجاهليين تغييراً شاملاً كاملاً تاماً غير منقوص . . فأبطل النظام القبلي ، وحياة المجتمع القبلية ، وأزال عن العربي نفوذ رئيس القبيلة الظالم ، وجعل المجتمع كله وحـدة واحدة يسوده الحب والتعاون والإخاء ، بعد أن كان يسوده الشقاق والخصام والخلاف ، وأعطى الفرد كل حقوقه المشروعة في مقابل ما فرض عليه من مسؤوليات وواجبات ، وحرر الرقيق والخادم والمرأة ، وأعطاهم حريتهم كاملة غير منقوصة ، ونظم الاسرة وأقامها على اساس متين من الحب والخير والتعاون ، وشرع لها الكثير من النظم الحكيمة الصالحة لكل زمان ومكان .. وقضى على عوامل الفرقـة في المجتمع، وعلى الحروب بين الناس ، وألغى الامتيازات القبلية والعنصرية، وجعل الناس جميعاً سواسية أمام الله والقانون وهم سواء كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي، إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولا فضل لأبيض على اسود ولا لأسود على ابيض، ولا لشريف على وضيع، ولا لعظيم على فقير ، ولا لرئيس على مرؤوس ، فالجميع عباد الله ، والجميع إخوان في دين الله ، وهم بالاسلام في خير عميم ، وفضل عظيم ، وسلام دائم ، وإخاء شامل ، وصدق الله العظيم في قوله : « **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » .

وهكذا أعطى الاسلام الانسان حريته واستقلاله الفكري والمالي والاجتماعي ورفع كرامته « **ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** » . وجعله خليفة لله في الارض يعمرها ويمحو منها الفوضى والجهل والجمود والظلام ، بما وهبه الله

من عقل ، وما بعث إليه من دين ، وما حث عليه من علم ، وأوجب على المسلم طاعة أولي الامر ، والعمل بدين الله في السير وراء الحاكم المسلم العادل ، الذي يحكم بما أمر الله ، ويسهر على حفظ الامن والنظام بين الناس ، وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التي تزيد في وحـــدة المجتمع الاسلامي وقوته كالزكاة والصدقة والاحسان وصلاة الجماعة والحج . وحرم الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم وحرياتهم ؛ وحارب الرذائل الاجتماعية والعادات الفاسدة والخرافات الكاذبة وعصبية الجاهلية ، واستبدل بها دعوة الدين ، وأباح الطيبات من الرزق ومن وسائل المعيشة الشريفة التي تتفق مع الاسلام الكريم . .

أثره في حياتهم السياسية :

وأثر الاسلام في حياة العرب السياسية واضح للعيان لا يحتاج الى بيان أو برهان :

١ — فقد كسب الاسلام للعرب وحدتهم السياسية الكاملة فاستقلت بلاد العرب استقلالاً كاملا ، بعد أن كانت أطرافهـــا تخضع لنفوذ الامم القوية المجاورة لها ؛ فكانت البحرين والحيرة تخضعان لنفوذ الفرس ، واليمن لنفوذ الحبشة والفرس ، وعرب غسان لنفوذ الروم ؛ فذهبت هذه التبعية الى غير رجعة ، وتجمعت القبائل والاطراف العربية والقرى والمدن وبلاد الصحراء في وحدة سياسية شاملة .

٢ — وصار العـرب يخضعون لحاكم واحد هو رسول الله ثم خلفاؤه من بعده يحكمهم بما أنزل الله ، فتجمعت الاهواء المتفرقة ، وتألفت القلوب المتنافرة ، وتوحدت النظم المتباينة في جزيرة العرب ، وأصبحت لهم وحدة

سياسية واجتماعية كاملة ، فوق وحدتهم في الدم والعنصر واللسان والدين .

٣ – وفتح المسلمون كثيراً من البلاد والامم والشعوب وحكموها، فتعود المسلمون على فن الحكم وصار منهم الامراء والولاة والقواد والقضاة والجنود، وسجلوا الكثير من مجد يعجب به الدهر وترويه الايام وأحسنوا معاملة أهل الاديان الاخرى والمساواة بين بني الانسان كافة .

أثره في حياتهم العقلية :

١ – أول شيء وأكبر أثر للإسلام الكريم في هذا المجال الكبير هو انه حارب الاديان الفاسدة والعقائد الزائفة ووجه الناس كافة الى الله وحــده لا شريك له فرفع من شأن العقل وذم التقليد والمقلدين ، ونهى عن اتباع الآباء في غير الحق ، وحارب الاوهام الفـاسدة التي تضعف من شأن العقل وتدعوه الىالكسل والجمود وسلب الاسلام الناس ما كانوا يزعمونه من القدرة على تسخير ما في الوجود من غيب وجعلمرد كل ذلك الى الله وحـده ، يعلم الغيب وما هو أخفى ، فزالت عن العقل ظلمات كثيفة كانت تحول بينه وبين الفهم والادراك والرؤية الصحيحة .

٢ – ودعا الاسلام الى العلم الصحيح والتفكير السليم وبعث فيالناس حب المعرفة والثقافة وفرض على العالم إرشاد الجاهل وتهذيبه الى غير ذلك من مقومات الحياة الصحيحة .

٣ – وبتشجيع الاسلام للمعرفة نشأت العلوم الاسلامية ، وعكف العلماء على البحث والتنقيب مما كان أساس المدنية والحضارة فى الاسلام ..

الى غير ذلك من مظاهر الرقي العقلي والفكري ، الذي كان من مقدمته

أن الاسلام دعا النـــاس الى أن لا يؤمنوا إلا بما يؤدي إليه العقل والدليل والبرهان الصحيح وإلى أن يمحصوا الامور ويتثبتوا في الحكم على الاشياء ، فلا يصدرون عن هوى ولا يحكمون إلا بعـد تنقيب وتدقيق واستنباط صحيح . .

وهذا هو منهج البحث في الاسلام، وهو المنهج الذي قامت عليه الحضارة الاسلامية الباهرة ..

●

أثر الاسلام في اللغة العربية

للاسلام أثر كبير في اللغة العربية يمكننا أن نوجزه فيما يلي :

١ – وحدة اللغة :

جاء الاسلام وللعرب لهجات مختلفة ، ولهجة قريش لها المنزلة الاولى بين هذه اللهجات بتأثير الاسواق ومواسم الحج لنفوذ قريش الروحي والاقتصادي بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة ، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش ، فأيد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة ، وكان من قريش ومن السلالات المضرية – أبناء عمومتهم – رجالات الدعوة وزعماء الدولة وأمراؤها وقوادها وقضاتها وحكامها وعمالها ؛ فكان لذلك أثر كبير في انتحال العرب لغة قريش بعد قليل ، أما ما توورث من لغة حمير ، فلم يكن متميزاً عن اللغة القرشية كثيراً سواء في التصريف أم الاعراب أم الاسلوب ، بل كان أكثره ظاهراً في اختلاف بعض الالفاظ عن بعض في الدلالة على المعاني المستخدمة : فالكَتَع في اللغة الحميرية : هو الذئب في لغة قريش ، وأنطى في لهجة حمير : بمعنى أعطى عند قريش ، والشناتر في كلام حمير : هي الاصابع في لهجة قريش ، وسامدون لغة حميرية وهي في لهجة قريش : الغناء ..

وهكذا ، الى غير ذلك مما له نظير في لهجات المصريين أنفسهم ، كالسدفة فهي الظلمة عند تميم والضوء عند قيس .

ولقلة الخلاف بين الحميرية والقرشية اندمجت لغـــة حمير كأخواتها في لغة قريش التي أصبحت لها السيادة والغلبة على جميع اللغات واللهجات .

٢ – انتشار اللغة وذيوعها :

أدت الفتوحات الإسلامية الباهرة الى انتشار العرب في شتى البلاد المفتوحة ، وإلى ذيوع اللغة العربية في أكثر هـذه الأقطار ، وصارت هي اللغة الرسمية فيها ، وأصبح يلهج بها بعدَ قليلٍ سكان سوريا ومصر وفلسطين وإفريقيا الشمالية ، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة في هـذه البلاد وسواها . وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى .

٣ – اتساع أغراض اللغة :

اتسعت أغراض اللغة بسلوكها منهجاً دينياً ، واتباعها خطة نظامية تقتضيها حال الملك وسكنى الحضر ، فأخذت اللغة تستعمل في :

(ا) تبيين العقائد الدينية التي جاء بها الإسلام : من إثبات وجود الخالق وتوحيد ذاته وتقديس صفاته ، ومن الإيمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب ، وغير ذلك مما لم يكن يفقه بعضه إلا بعض خاصة الجاهلية ، وأصبح بعد الإسلام الشغل الشاغل لجميعهم ، بل للأمة الاسلامية جمعاء .

(ب) تبيين الشريعة واستنباط الأحكام الملائمة لأحوال الزمان والمكان ، ولحسن معيشة المرء في منزله ومعاملته للناس والسلطان .

(ج) استعمالها في ضبط امور الملك ونظام العمران ، ونشر الأمان والعدل ، وفيما تستدعيه مرافق أهل الحضر والأمصار .

(هـ) وضع مبادىء العلوم ، وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية .

٤ – أما في المعاني :

فقد ارتقت المعاني ويظهر ذلك في الأمور الآتية :

١ – اتساع مادة المعاني باتساع المشاهدات والمعقولات .

٢ – حسن نظامها ومراعاة الوفاق بينها ؛ لارتقاء الفكر وتثقُّفه بالنظر الصحيح في امور الدين والملك والاقتباس من حضارة الفرس والروم ، وتنوع صور الخيال ، وروعة جماله ، تبعاً لتنوع المرئيات الجميلة التي انتزع منها .

٣ – دقة المعاني وعمقهـــا وتركيبها ، لأنها صارت تنبع من معين ثقافة القرآن ، ومن أصول العلم والمعرفة في الاسلام .

٥ – ألفاظ اللغة وأساليبها :

تغيرت الألفاظ والأساليب عن ذي قبل وظهر أثر هذا فيما يلي :

١ – تهذيب ألفاظ اللغة : بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة في مجانبة حوشيّ الألفاظ الذي ينبو عنه السمع ، ويمجه الذوق السليم .

٢ – نشأة ألفاظ إسلامية محضة ، مثل الجاهلية للعصر الذي كان قبل ظهور الاسلام ، ومثل المصحف، وأبو بكر خليفة رسول الله هو الذي أطلق هذا اللفظ على الصحف التي جمع فيها القرآن الكريم في عهده .

٣ – التوسع في دلالة الألفاظ : بإخراجها من معنى الى معنى بينه وبين

الأول مناسبة، ومن ذلك الألفاظ التي استعملها الشارع في غير معناها الأصلي: كالصلاة والصيام والزكاة والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق وغير ذلك، والألفاظ التي استعملت في نظام الملك ومصطلحات العلوم والصناعات التي عرفت في ذلك العصر .

٤ ـ موت ألفاظ منع الشارع استعمال مدلولاتها او أعاض عنها غيرها كالمرباع والنشيطة والفضول، وكعم صباحاً وعم ظلاماً ؛ وكقولهم «صرورة» للذي لم يحج ولم يتزوج ، فقال ﷺ : « لا صرورة في الاسلام » .

٥ ـ دخول طائفة من الألفاظ الأعجمية في الكلام ، وتسمى الكلمة حينئذ معربة ومن مثل ذلك : سندس واستبرق والديباج والرقيم وأوّاه وحنان والأسفار والربيُّون وغير ذلك .

٦ ـ التأنق في صوغ الاساليب والتفنن في تنوعها وإحكام نظمها، ووصولها في البلاغة الى غايتها ، لانبعاث روح القرآن الكريم في قلوب المتكلمين بها ، وسلوكهم سبيله في البيان ، وحسن الاداء ، مؤثرين الايجاز على الاسهاب في أكثر المواضع ، الى أن تقاصرت دونه أفهام الناشئين في الحضر من العرب ، والمستعربين من العجم آخر هذا العصر ، فأصبح للاسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الايجاز .

ولا شك أن معظم هذه التغيرات يرجع الى القرآن الكريم والحديث النبوي .

أثر الاسلام في حياة العرب الأدبية :

بزغ فجر الاسلام على العرب بالجزيرة بنور جديد تفتحت عليه عيونهم وقلوبهم وتيقظت له بصائرهم وعقولهم ، وهنالك لم يجدوا بداً من الانتباه له والالتفات إليه معارضين جاحدين ، او مؤمنين مذعنين ، ثم عكفوا عليه

يدرسونه ويتأملونه ؛ وكان لهذا كله من الاثر فى أدبهم والتوجيه لسلوكهم ، والتقويم لطباعهم ، والتهذيب لاخلاقهم ، والاختيار لألفاظهم ، ما لا يدع مجالاً للشك في أن البلاغة في التعبير والاناقة في التصوير ، والادب في الحديث ، والذوق في الخطاب ، والسمو في الخيال ، والايمان بالمثل العليا ، والغيرة على الحق ، والغضبة للكرامة ، قد اتجهت اتجاهاً سديداً ، وأخذت لوناً جديداً . ولذلك يقول المؤرخون : إن كثيراً من الشعر غاض ماؤه ، وانتكس لواؤه ، وحار بيانه وتعثر لسانه ، وذهل لبه ، وخانه قلبه ، وأجبلت قريحته ، وأظلمت بديهته ، فأقصر عن الشعر ، لانه رأى في بيانه عيّاً ، وفي نطقه خرساً ، وفي فصاحته فهاهة ، وفي أدبه قحة ، وإنّ ما جاء به محمد ﷺ لا يتطاول الى بيانه بيان ، ولا يستطيع أن ينطق بمثله لسان ، او يجري في مضماره إنسان ، اللهم إلا أن يسير على ضوئه ، ويهتدي بنوره ، ويقتبس منه ويعود من جديد تلميذاً له ، يأخذ من فضله وينتفع بأدبه ، ويسترشد بنصحه .

وقد وقف دولاب الكلام الى حد ما ، وأصبح الشعر الذي كانت له دولة لها نفوذ وسلطان ، وعرش وصولجان ، لا يذكر إلا في مخلفات الجيوش المهزومة ، والتاريخ الذاهب ؛ لان صوت القرآن المـــدوي غطى على بلاغة الشعراء ، وفصاحة الخطباء ، وصار الذي يقول الشعر ، او يخطب في المجامع ، او يتحدث في المجالس ، لا ينطق إلا بحذق ، ولا يقول إلا بميزان ، فلا يتلفظ بهجر مزر ، او أدب معيب ، او كلام هزيل ، او بيان مرذول .

ولا نعني بهذا أن مصراع الزمن قـد أغلق دون القريض ، وأن ألسنة الشعراء قد عقلت عن القول ، ولكننا نعني أن أساليب البيان العربي أخذت طابعاً أحسن ولوناً أجمل ، وطريقاً أفضل ، وسبيلاً أقوم ، وصار الناس يقابلون بالسخرية مجون امرىء القيس ، وخلاعة طرفة ابن العبد ؛ وتبع ذلك أنهم هجروا الالفاظ النابية ، والعبارات المكشوفة ، والمعـــاني الهزيلة ،

والعواطف النازلة ، والأخلاق المفضوحة ؛ وكان أسمى ما يهدف إليه قائل ، او ينطق به متحدث ، الدعوة الى مكرمة ، او الحث على فضيلة ، او الغيرة على عرض ، او التفاني في واجب ، او الذود عن حب ، او العصبية لغرض شريف ، او هدف نبيل ، او غاية محمودة ، وكان حملة لواء البيان حينئذ هم جنود الدعوة الاسلامية الذين وقفوا الى جانب رسول الله ﷺ ، يؤيدون دينه ، ويمكنون له ويدافعون عنه ، أمثال كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين ؛ وكانوا بهذا اللون الصادق الإحساس والنقي الوجدان، قد أحدثوا في الشعر مجالاً، فياضاً بالمعاني، خصباً بالصور ، غنياً بالقول ، قوياً ثرياً بروعة البيـــان ، يجد عشاق الأدب فيه إرواء ظمئهم ، وإشباع نهمهم ، وشفاء لما في صدورهم .

والأدب المأثور عن عصر صدر الإسلام يمثل بوضوح روح الإسلام ، ومدى تأثر المسلمين بأدب القرآن الكريم وبلاغته، هذا التأثر الكبير الخطير الجليل، وكما أثر الإسلام والقرآن في حياة العرب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقلية أثر كذلك في حياتهم الأدبية ، وأصبح الأدب العربي بعد ظهور الإسلام يغاير قليلاً او كثيراً أدب الجاهليين ، ويصور عقلاً غير العقل الجاهلي ، وشعوراً غير الشعور الجاهلي .

وصار هذا الأدب يمثل في مطلع عصر صدر الاسلام هـذا الصراع بين وثنية الجاهلية وتوحيد القرآن الكريم ، ولم يمض ربع قرن منذ البعثة المحمدية حتى كان العرب جميعاً قد دخلوا في الإسلام ، واتخذوه عقيدة لهم وقانوناً ونظاماً ومثلاً أعلى في حياتهم ، وتطور الأدب العربي بظهور الأسلام تطوراً كبيراً في أغراضه ومعانيه ، وفي أخيلته وصوره ، وفي فنونه الأدبية ، وفي ألفاظه وأساليبه ؛ مما سنحدثك عنه بعد قليل .

وهكذا غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية عند العرب تغييراً كثيراً ، ومن البدهي أن تعلم أن التغيير الذي حدث في الآداب العربية منذ ظهور

الإسلام لم يكن يرجع الى شيء إلا الى الاسلام وحـده ، فلم يرجع الى شيء اقتبسه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلم وأدب وفن ، ولا الى آثار مدنية وحضارة ، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداوة والخشونة ، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة ، ومن نضال خصوم الاسلام .

فكل تغيير حدث في الأدب إنما كان مصدره الأول القرآن الكريم الذى كان وحده مصدر ثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية ، وهو الذي أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة ، وبدّلَ حُوشِيّة الألسنة سهولة ووضوحاً وبلاغة، وأورث العرب دقة في التفكير ، وقوة في التعبير ، وجمالاً في التصوير ، ورقة في الأسلوب ، وروعة في الحجة .

وعليك أن تعرف أن تأثير الاسلام في الحيـــاة الأدبية للعرب لم يحدث فجأة ، ولم يتم مرة واحدة ؛ وإنما حدث قليلا وظهر شيئاً فشيئاً ، وقضى العرب وقتاً مستمسكين فيه بأدبهم القديم ، لا يكادون يعدلون عنه ، ثم بدأ عصر الانتقال بشيء من الحيرة، حين تلي عليهم القرآن، فأنكروه وأكبروه ، وتدبروه ؛ فقهرتهم بلاغته وقهرتهم قوته وعظمته، وأحبوه ، واطمأنوا إليه؛ وبعد أن كانوا بين منكرين له أصبحوا مؤمنين به ، وخاضعين له ، ومقرين بعظمته وبلاغته ، ومهتدين ببيانه وأسلوبه ومعانيه .

الفصل الثاني

القرآن الكريم

تمهيد

القرآن كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . آيات وصور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، ونزلت هدى ونوراً للبشر كافة . فقضت على الأوهام الباطلة ، والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء ، والشقاء سعادة ، واليأس أملاً والضلال هدى ، والهمجية مدنية ، والجهل علماً ومعرفة وأدباً وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب في الخير وطمح الى السلام والنور ، ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى ، وتذاع فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الاموال والاعراض ؛ الى حياة فيها رضى وأمن وطمأنينة وسلام وحرية وعدل وإخاء وعمران وحضارة ، وحدود محـدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب الانسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء الى الارض ، على سيد الخلق وأكرم الرسل ، وأشرف من في الوجود ، محمد صلوات الله عليه ، فبلغه الناس وبشر بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبـادئه في كل مكان ، فحملت الى العالم السلام والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة في تاريخ

الانسانية ، وأنقذت الناس من ضـــلال الجاهلية الاولى ، فتبارك الله رب العالمين .

نزول القرآن :

تم نزول القـرآن على رسول الله في ثلاث وعشرين سنة ، كان في ثلاث عشرة سنة منها يقيم بمكة ؛ وهي وطنه الذي نشأ فيـه ، وتسمى الآيات والسور التي نزلت فيها أو فيما حولها مكيّة[1] وكان في العشر السنين الاخرى يقيم بالمدينة ، وهي دار هجرته التي قضى فيها بقية حياته ، وتسمى الآيات والسور التي نزلت فيها أو في غزواته وأسفاره في أثناء إقامته فيها مدنية . ومجموعها أربع عشرة ومائة سورة . وتسمى السورة مكيّة إذا كان أغلبها مكياً وتسمى السورة مدنية إذا كان أكثرها مدنياً .

وأول ما نزل من القرآن : « **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » ، نزلت على رسول الله وهو يتعبد بغارة حراء بقرب مكة .

وأول ما نزل عليه بالمدينة : « **ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم او وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين** » ، لانهم كانوا أشد العرب إخساراً للكيل والميزان .

وآخر آية نزلت على أشهر الاقوال : « **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت**

---

(١) هذا هو أحد الآراء في تعريف المكي والمدني ، وعليه فيكون المكي هو ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة؛ وقيل: المكي ما كان خطاباً لاهل مكة، والمدني ما كان خطاباً لاهل المدينة والارجح أن المكي هو ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها .

عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » ، نزلت عليه في حجة الوداع ، وقبيل حجة الوداع نزلت عليه سورة التوبة .

موضوعات سور القرآن :

كانت موضوعات الآيات والسور التي نزلت بمكة ، الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتنزيهه عن مشابهة خلقه ، ونبذ عبادة الاوثان التي لا تنفع ولا تضر ، والدعوة الى الايمان بحياة أخرى بعد الحياة الدنيا ،في يوم يبعث فيه الناس وينشرون ويحاسبون على ما قدموا في دار الدنيا ، فيجازى المؤمن بنعيم الجنة الخالد ، ويعاقب الكافر بجحيم جهنم الخالد .. يقرر القرآن الكريم ذلك في صور شتى ، وأساليب مختلفة : فمن موعظة حسنة وحكمة بالغة ، وحث على التمسك بالفضائل والمكرمات ، ومن عبرة بقص قصة طاغية ، او عاقبة أمم باغية ، وسيرة رسول مع قومه ، ومن استدلال بخلق السموات والارض على قدرة موجدها ، وعلى وجوب توحيده بالروبية ، ومن إنذار للمعاندين ، وتقريع للمستهزئين ، ونعي على الجاهلين ، وذم للكافرين ؛ كل أولئك بعبارات بليغة ، وفقار مفصلة ، وسور كانت في أول الاسلام قصيرة ، ثم طالت بحسب الاحوال ، وذلك لان أهم ما قصد إليه الاسلام في أول أمره بيان منزلة العبد من مولاه وخالقه ، وما أعده له على طاعته او معصيته من ثواب او عقاب .

ثم لما قوي الاسلام بالهجرة الى المدينة ، وقيض الله له الانصار من أهلها يؤيدونه ويعلون كلمته ، صار أكثر موضوعات الآيات التي نزلت على رسول الله بالمدينة ، وفي أثناء خروجه منها للغزوات او الأسفار ، يشمل فوق ما تقدم أموراً أخرى ؛ مثل نظام العبادة ، وفرض الفرائض ، والتحليل والتحريم ، ومثل نظام الاسرة في تقرير أحكام الزواج والطلاق والميراث والوصية والاسترقاق والعتق ؛ ومثل نظام الجماعة بإطاعة أولياء أمورهم ،

والتناصر على إقامة الحـدود وحماية العرض والمال ، وتقرير العدالة في القضاء والاحكام ، وتحديد المعاملة الحسنة في البيع والشراء والمداينة والرهن ، ونحو ذلك مثل نظام معاملة أمة المسلمين لغيرها من الأمم في الحـــروب والسلم ، وتقسيم الغنائم ، ومعاملة الأسرى ، وعقـد الهدنة والمعاهدات ، وسياسة المغلوبين من غير المسلمين ، من أخذ الجزية من أهل النعمة ، ومصالحة غيرهم ، وغير ذلك مما تقتضيه مصالح البشر في الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان .

وجملة القول أن القرآن كتاب هـداية الى مكارم الأخلاق والآداب ، والى توحيد الله وعبادته وتنزيهه عن مشابهة خلقه ؛ وكتاب تشريع لحقوق الأسرة والأمة في خاصة نفسها ، وفي علاقتها بغيرها .

جمعه وكتابته :

كان القرآن ينزل منجماً على حسب المناسبات وكان يكتب ما نزل منه بأمر الرسول وكانت الكتابة في العُسُبِ واللِّخَاف والأكتافِ[1] . . وكان زيد بن ثابت [2] أكثر كتاب الوحي ، وقـد أشهده أبو بكر وعمر في جمع القرآن ، وولاه عثمان كتابة المصحف . وما كان عمر ولا عثمان يقدمان عليه أحداً في الفتيا والفرائض والقراءات وغيرها ، وكان ابن عباس يأخذ بركابه ، ويقول : هكذ يفعل العلماء ، وتوفي عام ٤٥ هـ .

وتوفي رســول الله ﷺ وبعض القرآن مسطور فيما ذكرناه ، وبعضه

---

(١) العسب : أصل السعف ، واللخاف حجرة دقيقة جمع لخفة ، والاكتاف : عظام اللوح من الحيوان .

(٢) تعلم زيد بن ثابت الفارسية – كما يقال – من رسول كسرى ، والرومية من صهيب صاحب النبي ، والقبطية من خادم النبي أيضاً ، والحبشية من بـلال خادم النبي وتعلم السريانية بأمر الرسول الكريم وأمره الرسول بتعلم كتابة اليهود (العبرية) كما ورد في حديث من صحيح البخاري (وراجع ١٧ فجر الاسلام) .

محفوظ في صدور بعض الصحابة ؛ ولما قتل في وقعة اليمامة سبعمائة من الصحابة فزع المسلمون ، وتقدم عمر الى أبي بكر يشير إليه بجمع القرآن ، فعهد به الى زيد بن ثابت فجمعه من الصدور ومن السطور صحفاً ، حفظها أبو بكر ثم عمر ثم أم المؤمنين حفصة .

وهذا هو **الجمع الأول** للقرآن الكريم ، وكان الغرض منه جمع نص القرآن في مجموعة واحدة ، حتى لا يضيع منه شيء بموت الصحابة والقراء .

ولما كثرت الفتوح ، واختلف القراء في قراءاتهم ، وخطّأ بعضهم بعضاً ، عند ذلك أمر عثمان زيداً وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث فنسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ، مرتب السور ، بحسب الطول والقصر ، وبلغة قريش وحدها ، وأمر بإحراق ما عدا ذلك .

وهذا هو **الجمع الثاني** وسببه على ما علمنا كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءات حين قرأوا كتاب الله بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك الى تخطئة بعضهم بعضاً ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ، فأمر عثمان بنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتب السور ، واقتصر على لغة قريش وحدها دون غيرها من اللغات .

قراءات القرآن :

كتب عثمان المصحف بلغة قريش وحدها وجمع الناس على قراءة واحدة ، وعمل أصحابه بما أمكنهم العمل به في ذلك المصحف . غير أن الجهات التي بعث عثمان إليها بالمصحف العثماني كان بها من الصحابة من كان يقرأ القرآن بقراءات تخالف قراءة المصحف ، وكان مصحف عثمان خالياً من الشكل والنقط أيضاً ، فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار الإسلامية .

والعرب يختلفون في نطق الكلمات بالمد والتسهيل والإدغام والإظهار ونحو

ذلك ، وقد أدى هـــذا الى اختلاف القراء في كيفية النطق ببعض الألفاظ القرآنية ، فتعددت القراءات التي تختلف في النطق باللفظ على نحو لا يترتب عليه تغيير في نص القرآن ، وذلك ما لا ضرر فيه ، وإليه يشير الرسول صلوات الله عليه في قوله لعمر : « يا عمر القرآنُ كلـُّه صواب ، ما لم تجعل رحمة عذاباً او عذاباً رحمة » .

والقراء السبعة الذين رووا القراءات السبع هم :

١ – عبد الله بن عامر (١١٨ هـ)

٢ – عاصم الاسدي (١٢٨ هـ)

٣ – عبد الله بن كثير (١٣٠ هـ)

٤ – أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ)

٥ – حمزة بن حبيب (١٥٦ هـ)

٦ – نافع بن أبي نعيم (١٦٩ هـ)

٧ – على بن حمزة الكسائي (١٨٩ هـ)

وهناك ثلاث قراءات قوية السند ، وأربع أخرى بين القوة والضعف ، فمجمل القراءات أربع عشر قراءة ، وهناك فرق بين قراءات القرآن والاحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم ، فالاحرف السبعة هي لغات أي لهجات ، سبع من لغات العرب في لهجاتهم والقرآن قد نزل بلغة العرب ، ولما كانت لغتهم مختلفــة في بعض نواحي النطق اقتضت حكمة الله أن ينزل القرآن على نبيه مشتملاً على لغات العرب المشهورة ، فالاحرف السبعة التي نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فبعضه نزل بلغة قريش وهو معظمهُ ، وقد كتب بها

أيضاً ، وبعضه نزل بلغة هذيل وبلغة اليمن فكتب بلغتهما . وهذه الاحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوباً بها في عهـد الرسول ولم يوجد منها شيء في مصحف عثمان ، لانه كان مقصوراً على لغة قريش . وقبائل العرب التي نزل القرآن بلهجتها هي : قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وبنو سعد ، وكنانة ، وأسد ، وقيس وأخلافها، ثم ارتفعت هذه اللهجات وبقيت لغة قريش وأصبح القرآن الكريم يتلى بلغتهم .

نظم القرآن وأسلوبه

نزل القرآن الكريم بأسلوب بهر العرب رونقـه وخلب ألبابهم جرسه ووقعه ، وملك نفوسهم ما فيه من جمال اللفظ ، وبراعة الصورة وسمو البيان وروعة الأداء .

جاء القرآن على هذا النظام الفريد من النضارة والجلالة والاشراق وحسن التقسيم ودقة الصوغ وسرعة النفاذ الى أعماق القلوب ، فدهش العرب وتحيروا وأطالوا النظر ، وأكثروا الالتفات الى ما فيـه من حسن رائع وجمال بارع وقوة أخاذة وبلاغـة نفاذة وسحر ساحر ، وإعجاز قاهر . وقالوا ما هذا الذي يطالعنا به محمد : أهو كهانة كاهن أم شعر شاعر أم سحر ساحر أم استعراض لأساطير الأولين ؟ وما كان هذا الذي راعهم وأعجزهم إلا كلام رب العالمين ، صاغـــهُ قلائد نادرة ، تنقطع دونه القوى وتتخاذل لديه بلاغة الفحول .

لقد كان العربي الموغل في عناده ، الممعن في عتوه وفساده ، يسمعه فيدخل على قلبه بلا إذن ، ويتمكن من نفسه دون جهد ، ويملك أسماعه جمال وقعه وحسن جرسه .

وما كان الذي بعث الرقة في قلب عمر ، وأشاع في نفســه الإخْبات والتطامُنَ إلا سماعه لسورة من القرآن عند أخته .

وهذا عتبة بن ربيعة يذهب الى رسول الله ﷺ عن قصده ، ويثنيه عن رسالته ، فما إن يسمع منه بضع آيات حتى يعود الى قومه قائلاً: « لقد سمعت منه كلاماً ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحراً » .

وهكذا كان يغزو القرآن كل قلب ، ويصل الى مكان الرضى والإعجاب من كل نفس ، حتى لقد سمع فاتك من فتاك الليل قارئاً يرتل في جنح الليل قوله تعالى : « **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الامد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون** » فرق قلبــه وخشعت جوارحه واجتذبته روعة القرآن وبلاغته فصاح من أعماقه : قد آن يا رب ، ثم أقلع عن سيرته وتاب عن آثامه ومعاصيه .

وسمع آخر قوله تعالى : « **وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والارض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** » فصاح : « يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه لليمين » .

وسمع بعض الأعراب قارئاً يقرأ « فاصدع بما تؤمر » فسجــد وقال : سجدت لفصاحته . وأنصت بعضهم الى قوله تعالى : « **فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً** » فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وهكذا كل من ينصت الى كلام رب العزة يلمح فيه سمو البلاغة وإعجاز البيان ونضارة الاسلوب . وإنما يرجع سمو القرآن وعظمته الادبية وقوته البيانية الى أسرار كثيرة ومزايا عظيمة منها :

١ – ما فيه من قوة التصوير ودقته وإحكامه :

فليس هناك تصويرٌ أجمع لأطراف المعنى ، وأشد مداخلة للاحساس وأبلغ إثارة للمشاعر ، من تصوير القرآن الكريم .

يصور نعيم المتقين وسعادة المؤمنين ، فيحس المرء الراحة تدخل إليه ، ويشعر بالغبطة تسري في أنحائه ، فتفعمه طرباً ونشوة .

ويصور الشقاء الذي ينتظر الطغاة ، والعذاب الذي أعده الله للعصاة فترتعد الفرائص وتختلج الأعضـــاء ، وتضطرب المفاصل ويزايل النفوس ما يسكنها من وقار واتزان .

ومن ذا الذي لا يهتز نشوة حين يستمع الى قوله تعالى : « **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تَغْنَ بالامس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** » ؛ وقوله تعالى : « **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلمـــا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ..** » او قوله : « **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فاذا هم مظلمون** » او قوله تعالى : « **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب** » ، او قوله : « **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، و ياسماء أقلعي** » إلخ .

وهكذا في كل صورة يجول فيها الفكر ويمر بها الذوق ، لا يرى الناظر إلا سمو بيان ، وإبداع صوغ وإحكام نظام ودقة تمثيل .

٢ – ما ينبث في جوانبه ، ويسري في تضاعيفه من مختلف الحكم التي تروع الأفئدة ، والتي بلغت من الصدق والدقة مبلغاً لا ترقى إليه حكمة ، ولا يطوله مثل .

ثم هي في بلاغتها وإيجازها وإعجازها من الفرائد التي لا يطمع فيها بليغ مهما أوتي من صفاء الذهن وروعة البيان ، وهل تجد مثل هذه البلاغة العربية في صحائفها وفي أدق وأروع تصوير للكثرة الفاشلة والجماعة الخادعة المتفرقة من قوله تعالى : « **تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى** » ؟ وهل يجد المرء أجل أدباً وأسمى حكمة من قوله تعالى : « **وإذا مروا باللغو مروا كراماً** »، او أشد تصويراً للطبائع الإنسانية واعتزاز كل جماعة بما عندهم وفرحهم بما لديهم من قوله تعالى : « **كل حزب بما لديهم فرحون** » .

وهكذا من أمثال قوله تعالى : « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** » وقوله : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً** » وقوله : « **ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا** » ، وقوله : « **وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه . وإذا مسه الشر كان يؤوساً ، قل كل يعمل على شاكلته** » .

٣ — حسن موقع الإيجاز والإطناب :

ففي المواطن التي تستدعي الإطناب نجد القرآن يشقق ألواناً تميل إليها النفس وينصت لها الوجدان .

وإن فيما حكاه رب العالمين من قصة يوسف ، وما فيها من ألوان العظات ، وما تمثل من انفعالات النفس البشرية بألوان الغضب والرضا ، وأنواع الحب والبغض ، وما طبعت عليه من إيثار النفس وشدة الغيرة في ذلك كله نلتمس أثر الإطناب في صدق الإحاطة ودقة التصوير ، يقول تعالى : « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين، إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال : يا بني لا تقصص رؤياك على**

إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » ، وفي سورة الرحمن تجد التكرير الداعي لتجديد الإقرار بالنعم واقتضائهم الشكر عليها ، وفي سورة المرسلات لتأكيد إقامة الحجة والإعذار .

وفي المواضع التي تستدعي الايجاز وتتطلب القِصَر ، والايجاز من أدق المواطن التي تستبين بها بلاغة البلغاء ، وتبرز أقدارهم ، وتتضح قيمهم الفنية ، وميزاتهم الأدبية . وإنّنا نجد القرآن قد أحكم وضع اللفظ بازاء المعنى وأشار بالاشارة العابرة الى مالا يتناهى من المعاني السامية. حتى يكاد السامع يخر ساجداً لهذا البيان الخلاب والأسلوب المشرق .

من ذلك قوله تعالى : « **فاصدع بما تؤمر** » وقوله : « **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** » وقوله : « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** » ، وقوله « **من يهد الله فهو المهتد** » ، وقوله : « **ولكم في القصاص حياة** » ، وغير ذلك مما لا يحصيه العد ، ولا يستولى عليه الحصر ، وكذلك تجد إيجاز الحذف والاختصار في قوله تعالى : « **ولوأن قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الأرض او كلم به الموتى** » .. وقوله : « **وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها** » ، فحذف الجواب لتذهب النفس فيه كل مذهب .

وهكذا نجد ان اسلوب القرآن الكريم قد امتاز بأجمل طابع ، واحكم صورة ، واروع سمت بما تهيأ له من حكم عالية ، ومعان سامية وحسن ارتباط بين المعاني وعذوبة محببة في الألفاظ ، ويكفي فيه انه اسلوب رب العالمين وخالق الخلق اجمعين ، جلت قدرته ودق صنعه وسمت معجزته .

هذا ونظم القرآن من نوع النثر ، وإن لم يجر على مألوف العرب في نثرها

المرسل وسجعها الملتزم ، بل هو آيات وفواصل يشهـد الذوق السليم بانتهاء الكلام عندها ، فتارة تكون سجعاً وطوراً تكون موازنة وازدواجاً ، واحياناً لا تكون هذا ولا ذاك . والأسلوب القرآني نمط فريد من البلاغة والروعة وجمال الديباجة وعبقرية التصوير ، اسلوب جمع الجزالة والسلاسة والقوة والعذوبة ، ضم البلاغة من اطرافها فهو السحر الساحر والنور الباهر والحق الساطع والصدق المبين .

●

بلاغة القرآن الكريم

القرآن الكريم أبلغ أثر أدبي عرفته العصور ، وأفصح كتاب سماوي نزل به الوحي ؛ وليس هناك كلام عربي يرتقي الى منزلة القرآن في البلاغة ، او يصل الى مكانته في البيان والفصاحة ، والعرب كانت تعرف الشعر والنثر ، وتعرف الخطب والأسجاع ، وتعرف القصص ، والحجـــاج ، والوعظ ، والحكم والأمثال ، والخطب والوصايا والنصائح ؛ ومع ذلك فليس هناك كلام عربي مأثور لبليـغ او أديب ، قبل نزول القرآن وبعد نزوله حتى اليوم ، يضارع القرآن الكريم سمواً وبلاغة وجمالاً وجلالاً .

ولقد حاول أناس في القديم معارضة القرآن في بلاغته فعجزوا ، وذلوا وخشعوا حائرين ، لأن بلاغته تنزلت من رب العالمين، وخالق البشر أجمعين.

وحاول النقاد وعلماء البلاغة فيمختلف العصور أن يضعوا مقاييس وحدوداً لبلاغة الكلام ، ومع ما وصلوا إليه حتى اليوم فإنهم لم يهتدوا الى ميزان دقيق توزن به بلاغة الكلام وفصاحته ، ومع ما وصلوا إليه ، وبأي معيار عايرنا به بلاغة القرآن ، فإن القرآن بأيٍّ منهما يقع في الدرجة العليـــا من البلاغة ؛ يهدي الى ذلك الذوق والطبع ، ويهدي إليه ايضاً ما كشف عنه علماء البلاغة من الدقائق فيعلوم المعاني والبيان والبديع، وقد ذهب عبد القاهر

الجرجاني الى أن بلاغة الكلام في نظمه ، فالمزية هي لتأليف الكلام ، وضم بعض أجزائه الى بعض ، وتخير كلماته وحسن مقاطعه ، مراعى في ذلك كله مقتضيات الأحوال ، والقرآن الكريم من ذلك كله في الطبقة العالية من طبقات نظم الكلام وحسن صياغة الاسلوب .

سمعه البلغاء فسجدوا لبلاغته ، والفصحاء فأذعنوا لفصاحته ، وقالوا : إن هذا إلا سحر يؤثر ؛ وقال الوليد بن المغيرة وقد سمع قوله تعالى : « **إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** » ، فقـال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن اسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر » .

إن عناصر البلاغة ودقائق البيـان وأسرار الذوق الأدبي ، لتتمثل في القرآن الكريم كل تمثل، وتتجمع فيه أعظم ما يكون التجمع، وأدقه وأوفاه؛ وضوحُ الكلام وتلاؤمه ، واستعمال أضرب الخبر في وجوهها ، ومقاماتها ، والذكر في موضـعه والحذف في موضعه ، والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير ، كل في المقام الذي يستدعيه ، والموضع الذي يتطلبه ، ثم تجد القصر في مكان القصر ، والوصل في مقام الوصل، والفصل في موضع الفصل؛ وتجد الايجاز في الحال الذي يتطلبه ، والاطناب في الموضع الذي يستدعيه ، وتجد التمثيل او التشبيه او الاستعارة او المجاز او الكناية قد أتي بكل منها على أدق ما يكون الكلام وأروعه وأعجبه ؛ وتجد الطباق والمقابلة والجناس والسجع وغير ذلك قد استعمل كل منهـــا استعمالاً عبقرياً لا يتسنى لاحد ، ولا يستطيعه بليغ .

وتجد القَسَم في موضع القسم ، وعلى أتم ما تكون البلاغة ، وانظر الى قوله تعالى : « **والنجم إذا هوى** » ، او قوله تعالى : « **والضحى والليل إذا سجا** » ، او قوله تعالى : « **والشمس وضحاها** »، فسوف تجد بياناً عبقرياً ، وجمالاً خالداً أبدياً ، لانه كلام الخالق وليس بكلام مخلوق .

سبحانك ربي ما هذا النور الهادي ، وما هذا السحر الغريب ، وما هذا الكلام العجيب ، وما هذا المنطق الفريد ؟ .

ولعلك قد قرأت تحليل عبد القاهر وعلماء البلاغة للآية الكريمة : « **رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً** » ، او للآيات الحكيمة : « **وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم، وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيـــل : يا أرض ابلعي مائك ويا سماء أقلعي وغيض الماء ، وقضي الأمر ، وأستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين** » ، ولعلك على ذكر من هذه الوجوه البلاغية التي يذكرونها في الموازنة بين قوله تعالى : «**ولكم في القصاص حياة**» وقول اكثم بن صيفي «القتل أنفى للقتل» ؛ ولعلك قرأت ما كتبه الزمخشري في بلاغة قوله تعالى : « **وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه** » ؛ وما دونه علماء البلاغة في بلاغة الآية الكريمة : « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** » .

وأحيلك الى ما ذكروه في بلاغة الآية الكريمة : « **واخفض لها جناح الذل من الرحمة** » ؛ وفي بلاغة قوله تعالى : «**ولما سكت عن موسى الغضب**»، وفي بلاغة كثير من تشبيهــات القرآن الكريم وتمثيلاته ومجازاته واستعاراته وكناياته ، فلسوف يأخذك العجب من هذه البلاغة الفذة الفريدة النادرة التي تأخذ بمجامع القلوب والالباب ، والتي هي مظاهر لبلاغة القرآن الكريم ، ولفصاحة هذا الكتاب الحكيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إعجاز القرآن

١ – وإذ قد عرفت من وصف نظم القرآن ما عرفت، وعرفت أن الله عز وجل قد تحدى به العرب فعجزوا ، ثم تحداهم بسورة منه ، فبهروا ، ثم تحداهم بأقصر سورة ، وبعدّة آيات فخرسوا ، ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا خاشعين ، فأعجز النظم القرآني ببلاغته العرب وغير العرب ، ولم يستطع أحد أن يأتي بمثله ولا بنظيره ؛ لماذا كان ذلك ؟ وكيف حدث هذا ؟ .

لا تعجب ايها القارىء ، فإن معجزة القرآن علت على كل معجزة ، وإن عظمة هذا الكتاب الحكيم فاقت كل عظمة ، وكان نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارجاً عن العهد من نظام كلام العرب ، مبايناً للمألوف من ترتيب خطابهم ؛ وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه ، عن اساليب الكلام المعتاد ، وليس للعرب كلام مشتمل على مثل هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر .

٢ – قالوا إن المعجز في كتاب الله ما تناثر في ثناياه ، وانبثّ في تضاعيفه : من إخبار عن الغيب ، وتنبؤ بما سيقع .

فقد تحدث القرآن عن أشياء لم تكن معلومة معروفة، ثم لم تلبث الحوادث أن جاءت مصدقة لما أخبر به ، موافقة لما تحدث عنه .

من ذلك قوله تعـــالى : **«غلبت الروم في أدنى[1] الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ؛ لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »** .

وقعت حروب بين الروم وفارس في أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة فشق ذلك على المسلمين ، لأن فارس مجوس والروم أصحاب كتاب ، وفرح المشركون ، فنزلت هذه الآية . وقد انتصرت الروم بعد ذلك على الفرس كما أخبرت هـــذه الآية وكان انتصارها في يوم بدر او يوم الحديبية .

وقريء **« غَلَبَتِ الرومُ »** بالبناء للفـاعل ، أي على ريف الشام ، **« وسيُغْلَبون »** ، أي وسيغلبهم المسلمون بعد ذلك .

ومن ذلك قوله تعـالى : **« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلُن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ، ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً »** .

فقد قيل : إن رسول الله ﷺ رأى في منامه قبل خروجه الى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ؛ فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا : إن رؤيا الرسول حق ، فلما تأخر ذلك أرجف المنافقون في المدينة ، وقالوا : والله ما حلقنا او قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية ؛ وفي

---

(١) أدنى الأرض : أي أدنى أرض العرب منهم ، وهي اطراف الشام .

العام التالي أتم الله على المسلمين فتح مكة، فكان ذلك تحقيقاً لوعد الله وتصديقاً لما جاء في هذه الآية .

وفي القرآن الكريم كذلك : « **أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويُوَلـّون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** » .

يروى أن أبا جهل بن هشام ضرب فرسه يوم بدر فتقدم في الصف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فنزلت «**سيهزم الجمع**» ؛ وعن عكرمة : لما نزلت قال عمر أيُّ جمع يُهزم ؟ فلما رأى رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويقول « سيهزم الجمع » عرف تأويلها .

على أن هذا الإخبار وإن كان من رب العالمين ، وإعلاناً ممن يعلم السر وأخفى ، فإنه مما لا يمكن أن يقطع به شك الشاكين المعاندين او إنكار المنكرين الضالين .

وفي استطاعة عنيد الآن أن يدعي أن هذه الآيات نزلت بعد أن تحققت احداثها وظهرت على صفحات الحياة وقائعها .

وفي استطاعة مكابر أن يقول : إن هذا من باب التمني والتشهي ، وقد تصدق الأيام ما يتمناه الإنسان ، وقد يتحدث المرء بكلام يعبر به عن امل يرقبه ، او حدث يتوقعه ، ثم لا يلبث أن يحدث ما امل او توقع كما حدث دون أن يخرم من ذلك شيء .

ولعل خير شاهد على ذلك قصيدة حسان بن ثابت ، التي حكى فيها ما كان يطمع فيه من فتح مكة ، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى فتحت مكة وحدث ما تخيله وتشهاه من هذه القصيدة :

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النقع موعدها كداء

يُنازِعْنَ الأَعنَّة مصغيات   على أكتافها الأَسل الظِماء

تظل جيـــادنا متمطرات   تلطمهن بالخمـــر النساء

ولقد تحققت هذه الصورة كما تَشَهّاها وتمنّاها حسان ، فإن رسول الله ﷺ رأى يوم فتح مكة النساء يلطمن الخيل ويضربنها بخمرهن يحاولن أن يرددنها عن وجهتها فنظر الى ابي بكر قال له ماذا ؟ قال : حسان ؟ (يقصد هذا البيت) .

•

ثم ينبغي حين البحث في نواحي الإعجاز أن نلتمس ناحية تكون طابعاً عاماً وسمة شائعة فيه حتى يكون من التحدي بكل سورة ويكون الإعجاز متحققاً في كل ناحية .

وليس يستطيع احد أن يقول إن كل ما في القرآن حديث عن غيب او نبوءة بما سيقع على أن المعجزة دائماً تكون من جنس ما برع فيه القوم حتى تكون الحجة أقطع ويكون التحدي فيهم أوقع . ولم يقل احد إن بعض العرب قد شارك الخالق في معرفة غيبه واستشفاف حجبه ؛ وإذا كان قـد أثر أن بعض كهانهم يتنبؤون ويستطلعون فذلك ضرب من الاحتيال والبراعة في انتزاع النتائج من المقدمات وقيـــاس الغائب على الشاهد كان لهم منه اوفر نصيب .

٣ – وقيل كذلك إنما اعجز القرآن العرب لما حواه من احاديث السابقين وأخبار الماضين ، وما كابدوا في الحياة من احداث ، جعلتهم مضرب المثل وعبرة الأمم .

ففيه امثال قصة موسى ونجاته طفلاً من يد فرعون ثم ذهابه الى مدين ثم

رجوعه الى قومه وكفاحه مع بني اسرائيل – وقصة نوح وبعثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم اخذ الطوفان لهم وإغراقهم بما كذبوا الرسل .

وفيه تصوير لما كانت عليه البشرية في اكثر العهـــود من ألوان الأخلاق والعادات والطبائع ، وفيه كثير من قصص الأنبياء مما كان يخفيه اهل الأديان عن الناس وينفردون بعلمه حتى يعيش الناس في عمى وجهالة وقد وبخهم الله على ذلك بقوله جل شأنه : « **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير** » .

هذا والرسول أمي لا يقرأ الكتب ولا يجلس الى العلماء ولم يؤثر عنه عناية بهذه الأخبار ، كما قال جل شأنه : « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذاً لارتاب المبطلون**» . وتلك ناحية على ما فيها من الحجة المقبولة والأسانيد السائغة ، ليس فيها كذلك مقطع فإن الكتب السابقة تشترك مع القرآن في هذه الناحية . على أن الجاحد المنكر في حل من أن يقول إن معرفة هذه الأخبار لا تحتاج الى قراءة الكتب ولا تتوقف على الخط باليمين ، وكثيراً ما تكون المناقلة وتلقف الأحاديث وسيلة من وسائل المعرفة . .

٤ – ويرى ابو اسحاق ابراهيم النظام أن إعجاز القرآن بالصرفة وهي أن الله تعالى صرف نفوس العرب ورد هممهم عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة . فكأنه يرى أن هذا الكلام يستوي مع كلام البلغاء في مادته الثانية وقدرته البلاغية ولكن الله صرفهم عن مجاراته ومنعهم من منافسته .

وقال المرتضى من الشيعة : بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن . فكأنه يقول : إنهم بلغـــاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك من المعاني ، لأنهم لم يكونوا اهل علوم .

وأوغل النظام في القول بالصرفة حتى عرف به وشايعه على ذلك بعض من خدعتهم بلاغته وغرهم حسن منطقه ، وحجته في ذلك أن عجز القـادر مع وفرة العـــدة واستكمال الأدلة واجتماع الأسباب ابلغ في تأييد الإعجاز وأقوى دلالة عليه من الضعف الذاتي الذي يبعثه تخاذل الملكة وقصور البيان.

على أن العجيب الغريب من امر هؤلاء وما جبلوا عليه من العناد والمماراة انهم يسترقون كل حيلة ويصطنعون كل وسيلة لإثبات الصرفة ، ولا يريدون أن يقروا بعظمة هذا الكلام وسموّه عن كلام البشر ، كأنما يغصون به ، وتكاد تزهق ارواحهم إذا ألجئوا الى تقريره · ولعله ما يكفي في الرد على هؤلاء أن الناس يقرأون للعرب ويدرسون القرآن ويستعرضون ثمار القرائح وحصائد الألسنة في كل عصر ، قبل الإسلام وبعده ، وما استطاع احد أن يقول إن كلاماً قيل مما يصح أن ينضَّد مع كلام الله في عقد ، او يسلك معه في سمط .

قد يقال : إن الله صرف العرب عن قبول التحدي فلم يأتوا بمثل هـــذا القرآن فأين كلام العرب قبل التحدي ؟ وهل هو مما يضاهى به كلام القرآن الكريم ؟ وهل استطاع احد قبل التحدي او بعد التحدي أن يأتي بصورة بيانية مثل هذه الصورة : « **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب إليه من حبل الوريد** » ، او هذه الصورة : « **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق** » .

يقول الرافعي في الإعجاز : « إن القول بالصرفـــة لا يختلف عن قول العرب فيه : « إن هو إلا سحر يؤثر » ؛ وهـذا زعم رده الله على اهله وأكذبهم فيه ، وجعل القول به ضرباً من العمى ، « **أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون** » .

وليس أدل على تحريف النظام، وسوء رأيه، وقلة تروّيه في ذلك مما يقوله فيه تلميذه الجاحظ : « إنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يؤتى بمثله . فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول : سمعت ولا رأيت وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه او معاينة قد بهرته ».

٥ – هذه طائفة من الآراء في الإعجاز ، وهناك آراء اخرى للعلماء ، وكلها مما ينحو هذا النحو ، او يتقارب من هذه المذاهب ، وهي إن صدرت في اكثرها عن إخلاص وعقيدة ، وفصلت عن اقتناع وبينة ، فلم يسلم بعضها من النقد ولم يخلص من التجريح . على أنها في جملتها مما يمكن أن يعد من مظاهر الإعجاز ويعتبر من دلائل التأييد .

على أن هناك وجهاً للاعجاز لا يصح أن يتعلق منه احد بشبهة، او يحوم حوله بمرية ، وهو إعجاز القرآن بأسلوبه البارع ونظمه الفائق العجيب ، وتأثيره القوي على النفوس ، ونفاذه الى أعماق القلوب ، وحسن مداخلته للأفئدة ، وعلوه عن مستوى ابلغ البلغاء عُلـُوّاً كبيراً ، مع شرف المعنى وسمو الحكمة ودقة المثل وروعة التصوير . إن الثابت المعروف أن العرب أعجبوا بالقرآن ودهشوا ، وتحيروا ، لبلاغته التي عقلت ألسنتهم ، وتأثيره السحري الذي ملك ألبابهم ، وأسلوبه الذي عظم عن اساليبهم وروحانيته الصافيـة التي اشعرتهم بقيمهم وحاكمتهم الى قلوبهم وعقولهم ، وحركت ضمائرهم ، وأيقظت احاسيس الخير في نفوسهم ، وفتحت امامهم الآفاق لمثل عليا وحياة كريمة .

ولم يقل احد ان العرب قد هالهم ما ذكره القرآن من حديث عن الغيب،

او ذكر لحكايات من سلفوا ، ووقائع من تقدموا ؛ إنما الذي بهرهم وملكهم وعقل شياطين السوء في نفوسهم هو اسلوب القرآن ومعناه .

قيل : إن ابا جهل بن هشام قال في ملأ من قريش : قد التبس علينا امر محمد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر ، وكلّمه ، ثم أتانا ببيان عنه ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى عليّ ؛ ثم اتاه والشر ينبعث من عينيه ، وشياطين السوء تلعب برأسه ، فقال يا محمد : أأنت خير ام هاشم ؟ انت خير ام عبد المطلب ؟ انت خيْر ام عبد الله ؟ فيم تشتم آلهتنا ، وتسب احلامنا وتضلل عقولنا ؛ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من اي بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من اموالنا ما تستغني به ؛ يقول عتبة : هـذا ورسول الله ساكت ، فلما فرغ من حديثه قرأ عليه محمد ﷺ قوله تعالى : « **بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربيـاً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض اكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي انما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون** » الى أن بلغ قوله تعالى : « **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ، قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فانا بما أرسلتم به كافرون** » . وهنا ارتعد جسم عتبة وتساقطت نفسه رعباً وفزعاً ، وصاح قائلاً : نشدتك الرحم يا محمد أن تمسك، وأمسك

بفم الرسول ؛ فهذا ملكت عليه بلاغة القرآن اقطار نفسه ، فلم يتمالك من أن يصبح مناشداً الرسول ان يكف .

فهل كان الذي راعه وروّعه وأشاع الرعب والوجل في قلبه إلا هـــذه القوة القادرة الخارقة ، وذلك الاسلوب الحاسم الرصين، وتلك البلاغة المتدفقة التي تحمل في ثناياها الصدق والصرامة .

لقد رجع عتبة الى اهله ؛ فلم يخرج لقريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ . فانطلقوا اليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب ، وأقسم لا يكلم محمداً ابداً ، ثم قال : لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود امسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم ان محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت ان ينزل بكم العذاب .

من كل ذلك يتضح أن إعجاز القرآن إنما جاء من جهة اسلوبه وما فيه من خصائص وميزات يستحيل أن تتهيأ لبشر ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

٦ ـ هذا ويحصي الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن وجوه الإعجاز فيما يلي:

١ ـ الاخبار عن المغيبات .

٢ ـ ما في القرآن من اخبار الامم القديمة ، مع اميّة الرسول .

٣ ـ نظم القرآن وبلاغته .

ونحن نرى أن إعجاز القرآن إنما يظهر اول ما يظهر في :

١ ـ اغراض القرآن وبلاغته .

٢ – وفي ألفاظه وأساليبه .

٣ – وفي معانيه .

فمن جهة اغراضه ومقاصده : نجده في كل غرض وموضوع غاية في الإبانة والجلاء ، ونهاية في الإصابة ، واطراد الأحكام ؛ فمن تشريع خالد وتهذيب بارع وتعليم جامع وأدب بالغ ، وإرشاد شامل وقصص واعظ ومثل سائر ، الى حكمة بالغة ووعـــد ووعيد واخبار بمغيب ، وغير ذلك من الأغراض والمقاصد ؛ وقد كان فحول البلاغة لا يبرز احدهم إلا في فن واحد من انواع القول : فمن يبرع في الخطابة لا ينبغ في الشعر ؛ ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ومن يستعظم منه النخر لا يستعذب منه النسيب ، ولأمر ما ضربوا المثل بأمرىء القيس إذا ركب وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب ، والنابغة إذا رهب .

ومن جهة ألفاظه وأساليبه : لا نجد منه إلا عذوبة في اللفظ ، ودماثة في الأساليب وتلاؤماً في التراكيب ، وليس فيها وحشي متنافر ، ولا سوقي مبتذل ، ولا تعبير عويص ، ولا فواصل متعملة ، على شيوع ذلك في كلام المغلقين ، واهل الحيطة المترون ؛ حتى انك لترى الجملة المقتبسة منه في كلام افصح الفصحاء منهم تفرعه جمالاً ، وتشمله نوراً وتكسوه روعة وجلالة ؛ الى إجمال في خطاب الخاصة وتفصيل في تفهيم العامة ، وتكنية للعربي وتصريح للأعجمي ، وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإلمام ، ولو أن ما في الأرض من شجرة اقلام .

ومن جهة معانيه : التي تجدها من غير معين العرب الذي منه يستقون : لاطراد صدقها وقرب تناولها ، واطمئنان النفوس إليها وابتكارها البديع على

غير مثال معهود ، من حجج باهرة ، وبرهانات قاطعة واحكام مسلمة ، وتشبيهات رائعة ، على تمازج وتواصل وبراءة من التقاطع والتدابر ، وهو في جملته نزهة النفوس وشفاء الصدور ، وهو الكتاب الخالد الذي لا تبديل لكلماته ، ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقض ، « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » .

يقول محمد عبده في إعجاز القرآن في كتابه « رسالة التوحيد » : « نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه ارقى العصور عند العرب ، وأغزرها مادة في الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطابة . وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ، ونتائج الفطن والذكاء ، هو الغلب في القول ، والسبق الى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الإذعان من العقول . وتواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ﷺ ، والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعوته ، وتكذيبه في الاخبار عن الله ، وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم . وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والأمراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته . وقد اشتد جميع اولئك في مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع ، وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد اسلافهم . وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر اصنامهم ، ويدعوهم الى ما لم تهتد إليه أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل اقصر سورة من ذلك الكتاب ، او بعشر سور مثله ، وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاؤا ليأتوا بشيء

من مثل ما أتى به ، ليبطلوا الحجـــة ، ويفحموا صاحب الدعوة ، وجاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي ، ولجاج القوم في التعدي ، اصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبـة وحققت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل الكلام .. » .

●

أثر القرآن في الأدب العربي

(أ) اما اثره في الأساليب والألفاظ ، فيتجلى واضحاً فيما يلي .

١ – وحد القرآن لهجات اللغة العربية في افصح لهجة ، واعذب لغة : وهي لهجة ولغة قريش . ثم حفظ اللغة من الاندراس والانقراض ، كما انقرضت لغات كثيرة .

٢ – كان القرآن اول عامل في ذيوع اللغة العربية وانتشارها وجعلها لغة رسمية عامة في شتى البلاد التي فتحها المسلمون .

٣ – جدد القرآن الكريم كثيراً من الألفاظ ، فنقلها الى معان اسلامية ، مثل الايمان والكفر والنفاق ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والركوع ، والسجود ، والوضوء ، والغسل ، والحج .

٤ – هذب القرآن الأساليب والألفاظ ، وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته على السنتهم في الصلاة والعبادة ، وطول درسهم له وتفهمهم إياه واستنباط احكام دينهم وشريعتهم منه . فنشأ من ذلك ان هجر كثير من الألفاظ الحوشية والمعيبة واستبدل بها الألفاظ العذبة السائغة ، وعدل عن الأساليب القديمة المعقدة والمتداخلة بعضها في بعض الى اساليبه السهلة الممتنعة . وابطل سجع الكهان .

٥ – وقد كثرت محاكاة الشعراء والكتاب والخطباء لعبارات القرآن في الفاظه واساليبه واقتباسهم من آياتهم فيما يقولون واستشهادهم بها في وعظهم ومحاورتهم وجدلهم . ويرى المتتبع لشعر المخضرمين في اول الاسلام كحسان وابي قيس صرمة وكعب بن مالك والحارث بن عبد المطلب، ولشعر الاسلاميين كثيراً من الفاظ القرآن واساليبه وكناياته وتشبيهاته .

٦ – وقد خلد القرآن صور البيان الرائع والأساليب البديعة التي استخرجها بعض الأدباء منه وسموها المحسنات البديعية .

(ب) وأما اثر القرآن الكريم في معاني الأدب العربي فيتلخص فيما يلي :

١ – شيوع الدقة ، والعمق والترتيب العقلي ، والحصافة والسمو ، في معاني الأدب ، – شعره ونثره – بتأثر الادباء والشعراء بمعاني القرآن الكريم، ومحاكاتهم لها .

٢ – هجر المعاني البدوية والحوشية والنابية ، واستعمال الادب المعاني الاسلامية الجديدة .

٣ – ترك المبالغة والفحش ، والتزام الصدق والاخلاص في معاني الادباء الاسلاميين .

(ج) وقد اثر القرآن الكريم في اغراض الادب شعره ونثره تأثيراً كبيراً :

١ – فقد هجر الادباء الاسلاميون الاغراض الجاهلية : من المبالغة في المدح والفخر والهجاء ، والمجون في الغزل ، والدعوة الى العصبيات والانتقام والاخذ بالثأر .

٢ – وقد اتى القرآن بكثير من القصص المسوقة للعبرة والذكرى ،

كقصص الأنبياء وبعض الملوك ، وكان من أهم الأسباب التي حملت المسلمين على درس تاريخ العرب البائدة والأمم القديمة السامية وغير السامية ، مما جعل التاريخ العربي ذا فنون وشعب كثيرة العدد والمباحث ، وجعله من أجمل كتب الأدب العربي . وهكذا أحيا القرآن فنوناً أدبية جديدة ، كأدب القصة والتاريخ ، وأدب الزهد وأدب الحكمة وهكذا .

٣ — وبسبب القرآن عكف العلماء والمفكرون على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية ، وكثرت الكتابة في هذه العلوم والثقافات. ولشدة حرص المسلمين على تفهم القرآن من حيث معرفة ألفاظه والوقوف على معانيه الوضعية والمجازية وأساليبه المختلفة وكناياته الدقيقة حملتهم بل فرضت عليهم تتبع ألفاظ اللغة العربية الفصيحة من العرب الموثوق بخلوص عربيتهم ، فكان من ذلك أن تجرد ألوف من الرواة ، يجمعون اللغة وشعرها وأمثالها ووصاياها وخطبها وأسجاع كهانها ، فجمعوا من ذلك مئات الكتب والرسائل ، وتألفت بذلك مادة الأدب القديم ، التي صار فيما بعد أساساً للآدب العربية في موضوعاتها وأغراضها ومعانيها وتصوراتها وأخيلتها .

٤ — ولقد رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين فنون الأدب .

٥ — ولقد اكتسب الشعراء والخطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه في التعبير ومناهجه في سوق الآراء وصياغة الحجج ، ما جعلهم يحتذون حذوه . ويتبعون منهجه ، فإذا كنا نقرأ في آي الذكر الحكيم قوله تعالى : **« وإنا او إياكم لعلى هدى او في ضلال مبين »** او قوله : **« يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعزُ منها الأذلَّ »** او قوله : **« أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً »** .

فإنا نرى هذا الأسلوب البياني الرائع يتمثل في قول حسان بن ثابت في الرد على أبي سفيان بن الحارث حين هجا النبي ﷺ :

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء

وإذا قرأنا قوله تعالى : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** » . رأينا كذلك حساناً يقتبس هذا الأسلوب البارع في قوله :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وإذا قرأنا قوله تعالى : « **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** » رأينا معن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن :

فما زلت في ليني له وتعطفي   عليه كما تحنو على الولد الام

وخفضٍ له مني الجناح تألفاً   لتدنيه مني القرابة والرحم

وكما أثر القرآن في أساليب الأدباء كذلك أثر في تفكيرهم حتى لقد رأينا الحطيئة وهو أقرب الى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول :

ولست أرى السعادة جمع مال   ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً   وعند الله للأتقى مزيد

والحق أن القرآن الكريم هو الذي خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب والشعر .

الصّورة الأدبية في القرآن الكريم

ـ أولاً ـ

(١)

نريد من هـذه الدراسة أن نتعرض لجدة القرآن الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الأدبيـة ؛ فضلاً عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والإنسانية ، التي كانت جدتها حدثاً كبيراً ضخماً من أهم الاحداث العالمية ، وأكبرها إثارة وجليل أثر ، وكبير خطر في الحياة .

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن القرآن الكريم من ناحيته الروحية والفكرية قد أتى بكل جديد ، وبأكثر وأكبر مما أتى ويأتي به أي جديد ، وأن جدة القرآن الكريم حقيقة وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم ، ومع كل ما وصل إليه الفكر الإنساني من تطورات مذهلة ، ونتائج جديدة في نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة ؛ وجدة القرآن الكريم باقية ماثلة أمام كل تطور إنساني وبشري ، وأمام كل تقـدم فكري بلغته الحياة حتى اليوم ، والقرآن الحكيم كما كان جديداً على عقل إنسان القرون

الاولى لنزوله ، فإنه بفكره المشرق المضيء ، وما أتى به في مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على أقوم الاصول وأرسخ الدعائم ، هو جديد أبداً ، وسيظل هو الجديد دائماً على مر العصور والاجيال والاحقاب .

لن نفيض في الحديث إذن عن الجدة في القرآن الكريم من حيث نواحيه وآثاره الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية ، ولكننا نريد ان نبحث هنا عن جدة الصورة الادبية في القرآن الكريم .. ويدفعنا الى ذلك امران :

الاول : جانب المعجزة في القرآن الكريم .

والثاني : جانب المعرفة لاهمية هـذا الكتاب العظيم وقيمته من الناحية الادبية ، فضلاً ، عما يجمع عليه كل المنصفين من اهميته وقيمته واثره في الناحيتين الروحية والفكرية .

ولا يستبين للباحث اهمية اي نص من نصوص الادب ، او اثر من آثاره الرفيعة إلا إذا ادرك ادراكاً عميقاً مدى الجدة في هذا الاثر ، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والنمو والزيادة التي يضيف بها الى الفكر الإنساني شيئاً لم يضفه إليه السابقون .

ومن حيث كانت جدة القرآن في جوانبه الروحية والفكرية امراً مسلماً به ، فإن الذي سينتهي بنا الحديث إليه هو تقرير الجدة في الصورة الادبية للقرآن الكريم ايضاً ، لان تقريرها اساسي لتقرير اي اثر وفهمه ومعرفة قيمته .

ولماذا نخص حديثنا هنا ببحث الجـــدة في الصورة الادبية للقرآن ؟ ولا نطلق البحث اطلاقاً ليصبح الغرض منه البحث عن مدى ما في القرآن من الجانب الادبي عامة من جديد ؟

نعم نريد ان نبحث عن الجديد في الصورة الادبية للقرآن الكريم وحدها ، لان الصورة الادبية هي الاطار العـام للادب ، وهي التي تحدد للادب شتى

عناصره واصوله وخطواته ومختلف وظائفه ؛ وهي التي تستثير الباحث اول ما يستثيره في النص الادبي ، من خصائص ومميزات ، على أن الصورة الادبية في النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآثار الادبية ، ولا تختلف عندهم كبير اختلاف نادراً جداً ، وفي اقل حـــدود الاختلاف والفوارق الفنية للادب .

والصورة الادبية لها معنيان عند نقاد الادب :

الأول : انها تعني المنهج وطريقة الاداء ؛ وتساوي بهذا المعنى ما نطلق عليه اسم الجنس الادبي من قصيدة ومقالة وخطبة ورسالة وقصة إلخ .

والثاني : ان الصورة هي الشكل في النص الادبي ، وتقابل المضمون الذي هو الفكرة او المعنى ، او الغرض ايضاً (مع بعض التجاوز) في النص ، فعلى هذا تكون الصورة التي هي الشكل في النص الادبي شاملة للعبارة — اي الاسلوب — والخيال الذي يلون عاطفة الاديب ويصورها . وعندئذ نقف في النص بين الشكل والمضمون ، فيجب على الاديب ان يوازن بينهما موازنة دقيقة ، فلا يطغى احدهما على الآخر ، فلا يطغى المضمون على الشكل اي الصورة . وإلا خرج الكلام من باب الادب الى العلم ، ولا تطغى الصورة على المضمون ، وإلا كان الكلام ادباً لفظياً إنشائياً لا وزن له في باب الفكر ، بل في مجال الادب ايضاً ؛ وحينئذ يجب ان يهتم الاديب بالمضمون او الفكرة ، كما يهتم بالصورة او الشكل .

وسوف نتحدث هنا عن جـدة الصورة الادبية في القرآن الكريم بالمعنى الاول الذي هو طريقة الاداء ، ونتحدث بعد ذلك عن جدة الصورة الادبية بالمعنى الثاني الذي هو الشكل او النظم او الاسلوب .

(٢)

كانت الصورة الادبية عند العرب الجاهليين قد انتهت الى جنسين كبيرين هما النثر والشعر ، فوقف النثر عند الخطبة والوصية والنصيحة والمثل والحكمة والمنافرة والمفاخرة والمحاورة وسجع الكهان والاسطورة والقصة الشعبية القصيرة ، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكلها المعروف المألوف .

ولم يكن للنثر وفنونه واجناسه في المجتمع العربي كبير خطر ، ولا عظيم شأن ؛ وكان اكثره ارتجالاً واقتضاباً ، وليس فيه ثقافة واسعة ، ولا فكر مضيء ، واكثره يذهب في الشتات والاختلاف وتفكك الوحـــدة الفنية (او العضوية) مذهباً بعيداً ، فضلاً عن ان النثر لم يحفل به المجتمع الجاهلي احتفالاً يذكر ، ولم يوله عناية ما ، ولا احلـّهُ منزلة خاصة ، وفوق ذلك كله فقد فقـد النثر قيمته ، بفقدان اصوله قبل التدوين ، ولضياع اكثره للمدة الطويلة التي عاشها هـذا النثر معتمداً في بقائه على الحافظة وحدها ، والحافظة يَنِـــدُّ منها النثر ولا يبقى طويلاً فيها بعكس الشعر لانه مقيد والنثر مطلق ، والمقيد يبقى في الذاكرة اكثر مما يبقى المطلق . ومع ذلك كله فهذا النثر المأثور عن العصر الجاهلي قد رفض كثيرمن الدارسين والنقاد ؛ ومن بينهم لفيف من المستشرقين وطه حسين ايضاً ، رفضوا ان يسمى نثراً فنياً ، لانه في رأيهم لم يكن محتوياً على عناصر النثر الفني ومقوماته ، وذهبوا الى انه اشبه بالنثر الشعبي ، الذي يستعمل لغة لاحاديث الحياة اليومية العابرة .. ولكل هذه الاسباب كانت الصورة الادبية النثرية عند العرب الجاهليين غير ذات اهمية تذكر في مجال النقد وموازين الكلام ، والحديث عن القيمة الفنية .

ولقد بقيت القصيدة الغنائية وحدها ارفع صور الادب في مجتمع الجاهليين . وهو المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم متحدثاً إليه مفيضاً في التوجه — كل التوجه — له .

وهذه القصيدة الغنائية قد مرت بأطوار عديدة من التهذيب الفني ، حتى انتهت الى ما انتهت إليه من قصيدة المعلقات المعروفة ذات الصبغة المتوازية العمودية ، التي وضعت تقاليدها الفنية العريقة كل ألوان التقاليد الشعرية للقصيدة العربية التي ورثناها عن الجاهليين وكانت لهـذه القصيدة منزلتها ومكانتها وأهميتها في المجتمع العربي ، فهي حديث الناس ، وموضع اعتزازهم وتقديرهم وفخرهم ، وهي التي ينشدونها في مجالس لهوهم وجدهم ، وفي مسامراتهم ، وأنديتهم ، وفي أسواقهم وحروبهم وحلهم وترحالهم ، وهي على العموم آية عبقرية ، ودليل شخصيّةٍ وذاتية عظيمـة ، والشاعر عندما يكتبها ترتفع قيمته الاجتماعية في مجتمعه ، ويصبح وله كل ألقاب الحمد والمجد والتقدير بين الناس ، وبلغ من أمر قصيدة المعلقات أن علقت على أستار الكعبة .

وإذا أردنا أن نعرف قيمة قصيدة المعلقات هـذه لنرى مدى ما تستحقه من تقدير رأينا أنها :

١ – تخلو من كل قيمة فكرية او إنسانية او روحية .

٢ – وأنها تخلو من كل وحدة فنية ، ممـا لاحظه عليها ، كثير من النقاد المعاصرين من أمثال العقاد في كتابه « مراجعات » وغير العقاد أيضاً ، كأحمد أمين فيما كتب عن الشعر الجاهلي في مجلة الثقافة [١] .

٣ – وأنها تمثل منهجاً بدويـاً في التعبير والأسلوب واللفظ والخيال ، وليس هو كل شيء في مناهج التعبير الأدبي .

٤ – وأنها كذلك تكثر أخطاء الشاعر اللغوية فيها كثرة مذهلة .

ولسنا نقول نحن ذلك تجنياً على القصيدة العربية القديمة ، بل لقد سبقنا

(١) جناية الشعر الجاهلي على الادب العربي – أحمد أمين مجلة الثقافة المصرية – عام ١٩٣٩ .

الى ذلك الإمام ابو بكر الباقلاني في كتابه المشهور « إعجاز القرآن » الذي درس معلقة امرىء القيس المشهورة في صفحات عديدة من كتابه ، وابان ما اشتملت عليه من اخطاء لغوية وفنية وغيرها .

ونحن نعرف اهمية قصيدة المعلقات معرفة وثيقة فهي التي وضعت كل الأصول الفنية للقصيدة العربية وهي التي تمثلت فيها البلاغة العربية بجميع خصائصها تمثلا كاملا وهي التي استنبطت منها احكام اللغة العربية وقواعدها في بيانها ونحوها وصرفها واشتقاقها واحكام مفرداتها ونظام معجماتها وغير ذلك .

وهي كذلك امدتنا بالشاهد والمثل على كل شيء في لغتنا العربية ، ومن اجل ذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يقول : إذا عزّ عليكم فهم شيء من كتاب الله تعالى فالتمسوه في شعر العرب[1] ، فنحن لا نريد ان نغض من قيمة القصيدة الشعرية الجاهلية او ننفر منها، ولكننا نضعها في موضعها الذي وضعه فيها الإمام الباقلاني في مقام حديثه عن إعجاز القرآن الكريم .

هذه القصيدة الشعرية إذن كانت ارفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين ، ومع ذلك فإنها لا تزن شيئاً في مقام الحديث عن الصورة الأدبية في القرآن الكريم .

(٣)

فما هي إذاً الصورة الأدبية في القرآن الكريم والجديد فيها ، والطريف

---

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتابنا الحياة الادبية في العصر الجاهلي ، وكتابنا موقف النقاد من الشعر الجاهلي .

منها ، والشيء الذي لم يعرفه الجاهليون من اجناسها وفنونها والوانها وطرق أدائها ؟

لأول وهلة نجد انفسنا امام اشياء جديدة كل الجدة ، ففرقان وقرآن وآيات وسور اسماء جديدة لمسميات جديدة كذلك .

وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا[1] .

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً [2] .

آلر تلك آيات الكتاب المبين إنا انزلناه قرآناً عربياً ، لعلكم تعقلون[3].

طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى[4] .

سورة انزلناها وفرضناها ، وانزلنا فيها آيات بينات ، لعلكم تذكرون[5] .

ولم ينزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب ، فلم يتخذ شكل القصيدة الجاهلية نمطاً له . ولم يأت على اسلوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل ولا الحكمة ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة .

ولكننا نجد فيه القصة في ارفع اشكالها واروع ظلالها ، ونجد فيه الخيال الرفيع في الوان بديعة من التمثيل والتشبيه والمجاز والكناية والاستعارة ، ونجد فيه البشارة والانذار والوعد والوعيد ، ونجد ارفع الأوصاف واجل الصور .

---

(١) آية ١٠٦ سورة الإسراء .

(٢) آية ١ من سورة الفرقان .

(٣) آية ١ من سورة يوسف .

(٤) آية ١ و ٢ من سورة طه .

(٥) آية ١ من سورة النور .

لم يكن القرآن شعراً ولا سجعاً ولا مزاوجة ولا نثراً مرسلاً ولا خطابة ، بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من مناهج كلامهم ، ينصرف على وجوه مختلفة ، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم واحكام ، واعذار وانذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف ، واوصاف وتعليم ، وسير مأثورة ، ويتردد بين طرفي الإيجاز والاطناب ، كلمه يضيء ، كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، كالروح في البدن ، والامن في الوطن ، وكالغيث الشامل ، والسحاب الهاطل ، وكالضياء الباهر ، والبحر الزاخر ...

وان تعجب فعجب تصوير القرآن الكريم للحيـاة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها وللنفس البشرية في سلمها وحربها ولهوها وجدها واملها والمها ، وكفرها وإيمانها ، وللمثل العليا في الحياة المهذبة الكريمة ، التي يسعى إليها إنسان الإسلام ، وتسير لشاطئها الأمين إنسانية الحياة في ظلال الدين ؛ لأنه خلاصة لكل ما في الحياة من ثقافة وحقائق ، والمنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة .

وفي القرآن الكريم من سمو وصفاء الحكمة ، وتمام مطابقة المثل ، ما جمع به البلاغة من مختلف اقطارها . وفيه من الحجة الدامغة ، والروحانية الصافية ، والحديث عن العقيدة ، والإفاضة في بيان الشرك والإيمان . والشر والخير ، ما يوقظ الضمائر ، ويحرك العقول ، ويثير النفوس .

وفيه من أخبار الامم الماضية ، والفرق الخـالية والشرائع البائدة ، والاديان السالفة ، ومن اخبار اهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن الاخبار بالمغيبات ، ومن الافاضة في شرح الدعوة ، وبيان التشريع ، والاستدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة في خلق السموات والارض ، وبقياس الغائب على الشاهد ، وبضرب الامثال ، وبالبراهين العقلية المجردة ، وفيه من حسن

التقسيم ، وجمال المقابلة ، وروعة الطباق ، وبديع الجناس ، ورفيع الفواصل ، ما يهز القلوب ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه .

ومع ذلك كله فهو ليس كتاب قصص ، وليس كتاب متعة وتسلية ، وليس سفر أدب او حكمة او تاريخ او اجتماع ؛ وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات ، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية ، فهو كتاب الإنسانية كلها ، وصحيفة البشرية قاطبة .

وما أروع القرآن في فواتحـه ومقاصده وخواتيمه ، وفي مبادىء آياته وفواصلها ، وفي حديثه عن المعاني الدقيقة ، والأفكار العميقة ، والأغراض النبيلة ، وفيما اشتمل عليه من دقة التصوير ، وجمال الوصف ، مع سمو التعبير وعظمة التأثير ، وروعة الإيجاز ، وسحر المجاز وبلاغة التكرار ، وفصاحة التعريض ، يصور نعيم المؤمنين ، وسعادة المتقين ، فيدعك تشعر بالراحة والنشوة ، وبالسعادة والفرحة ، وبالسرور والحبور ، وبقرة العين وانثلاج الصدر ، وبالعجب والطرب . ثم يصور هلاك العاصين ، وشقاء الجاحدين ، وعذاب الكافرين ، فيتركك حليف الهم والحزن ، والتذكر والاعتبار ، والتفكر والتدبر ، والالم والامل ، والبكاء والعبرة المنسكبة ، والآهة المرددة .

والسورة القرآنية ، قصيرة او طويلة تجيء ممثلة لفكرة ، ومصورة لغرض ، ومؤدية لمعنى ، وتسير في جوها العبق ، وأفقها الساحر ، وجوانبها المشرقة ، فتسير مع الفكرة المقصودة خطوة خطوة ، وتجدك تمشي مع العرض القرآني ، غاية فغاية ، في وحدة واتساق ، وفي نظام عجيب ، وترتيب غريب ، وفي منطق منسّق ، وحجج متدافعة متدفقة ؛ وتجد الآيات تتحرك في معرض الاستدلال كأنها موكب من نور ، ومهرجان مصور لادق خفايا الشعور ، وحنايا الصدور ، وتجد في هذه السورة فكرة واحدة غير الفكرة التي تمثلها السورة

الاخرى ، وغرضاً واضحاً غير الغرض الذي ترمي إليه السورة السابقة او اللاحقة .

وتجد افتتاحات السورة العجيبة ، مثل ص ، ن ، ق ، ط ، طسم ، طسن ، حم ، آلر ، ألم ، الى غير ذلك .

ونجد الآيات تتوالى في السورة ، وكأنها البحر الهادر ، والموج العاصف ، وتجد الفواصل في السورة ، موقعة الخُطـَا ، منغمة الحروف ، وتجد القصة والعبرة ، والموعظة والحكمة في قالب من السحر ولا كسحر هاروت وماروت ؛ وفي طابع من الحسن والجمال ، ولا كحسن يوسف وإخوته .

وتجد لكل سورة اسماً عجيباً ، البقرة ، والرعد ، والطور ، والمائدة ، والكهف ، ويونس ، ويوسف ، وإبراهيم ، ومحمد ، والنور ، والمؤمنون ، والمنافقون ، والضحى ، والشمس ، والقتال ، والفتح ، والحشر ، والصف ، والنساء ، والطلاق ، والتحريم ، والأحزاب ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، وآل عمران ، والجمعة ، والعصر الى غير ذلك ؛ وتجد لكل اسم من أسماء السور قصة ، ولكل قصة حدثاً وعبرة .

وكل ذلك نمط مخالف لانماط البيان عند الجاهليين ، وصورة مباينة لصورة البلاغة عند العرب الذين نزلت عليهم هـذه المعجزة الإلهية الحكيمة .. إنها صورة أدبية جديدة لا تجد لها مثيلاً ولا شبيهاً بها ، ولا تجدها نفسها ، إلا في القرآن الكريم .

سبحانك ربي ، أنزلت القرآن ، وفصلت الفرقان ، وأحكمت البرهان ، وأنت رب العالمين ، ومنزل الكتاب المبين ، ورأى العرب الكتاب شيئاً عجباً ، ومنطقاً جديداً ، ومنطلقاً فسيحاً من الحكمة الإلهية الجليلة ، فقال عتبة بن ربيعة حين ذهب فاستمع الى محمد يتلو آيات الكتاب : « لقد كلمته

فأجابني بشيء ما هو بسحر ولا كهانة ولا شعر » إنما هو الوحي ، الوحي المنزل على محمـد بن عبد الله ، الوحي الذي نفس بعض العرب على محمد أن ينزل عليه ، حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة الى الاخنس بن شريق يقول له : ما تقول فيما سمعت من محمد ، فقال الاخنس : ماذا أقول ، قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا : نعم ، وقالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم عادوا يقولون : فينا نبي ينزل عليه الوحي ، والله لا آمنت به أبداً .

انه الوحي المنزل من السماء ، المشتمل على الروعة والجمال والجلال والبهاء ؛ وكفاه ذلك فخراً على فخر ، وسناء على سناء .

ـ ثانياً ـ

(١)

ونتحدث هنا عن الجدة في الصورة الأدبية القرآنية ، التي نريد منها الشكل وما يقابل المضمون ، بعد أن تحدثنا عن الجدة في الصورة الأدبية القرآنية التي يراد منها الجنس الأدبي وطريقة الأداء والمنهج الذي يؤثره المتكلم في التعبير .

والصورة التي نريد أن نتحدث هنا عنها ، ونريد بها الشكل في النص القرآني ، لا يمتري احد ، ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام في أنها والجدة صنوان ، وفي أنها تعلو ببلاغتها على كل بيان .

تتكون عناصر الصورة من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات ، ويضاف إليها مؤثرات يكمل بها الأداء الفني ، من الإيقاع واللحن للكلمات والعبارات ومن الصور والظلال التي يرسمها التعبير ، ثم هناك طريقة تتناول الموضوع ، أي الأسلوب الذي تعرض به التجربة الادبية .

والصورة المثيرة للالتفات هي القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلم ومشاعره ، والتي تتجمع فيها روعة الخيال والنغم ووحدة العمل الأدبي ، وتظهر فيها شخصية الأديب وتخيره للألفاظ تخيراً دقيقاً .

ويقف البليغ أمام اللفظ طويلاً ، يؤثر لفظة على لفظة ، ويفضل كلمة على كلمة ، ويقول كثير من النقاد : اننا نفكر بالألفاظ ، أي ان الألفاظ هي مظهر إدراكنا الفكري ، وعمل الأديب تهيئة الجو الفني للألفاظ لتشع على قارئها وسامعها الظلال والإيقاع وترسم الصور ، وتؤدي المعاني في رشاقة وحركة وتتابع وعذوبة؛ نقرأ قوله تعالى في كتابه العزيز في سورة «**والضحى والليل إذا سجا**» فنجد جواً من الهدوء والطمأنينة والنعمة ؛ ونقرأ قوله تعالى : « **فأصبح في المدينة خائفاً يترقب** » ، فنجد كل لفظ في التعبير قد رسم صورة مذعور يلتفت في كل جانب خوفاً وطلباً لموضع الأمن ؛ ونقرأ قوله تعالى « **عتل بعد ذلك زنيم** » فنجد البلاغة في ارفع منازلها ، ولا نجد لفظاً يمثل الجفوة والغلظة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة . . وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم تمثل المعاني تمثيلاً دقيقاً رائعاً كاملاً غير منقوص ..

والخيال في الصورة الادبية يبدو في مظاهره العديدة من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة وحسن التعليل ..

والإيقاع او اللحن في الصورة الادبية عنصر لا يقل اهمية عن الخيال .

وموهبة البليغ تجعل اسلوبه مملوءاً بالحيوية والمتعة والتأثير، وتجعله لا يقلد احداً في لفظه ولا في عبارته؛ وليس الأسلوب حشداً من الالفاظ المرصوصة، ولكنه تعبير عن تجربة شعورية ، وترتب الكلمات فيه وفق ترتب المعنى في الذهن .

ومن دلائل بلاغة الكلام أن يراعى فيه مقامات الكلام وأحوال بلاغته ، فتوضع الجزالة في موضعها ، والرقة والعذوبة في موضعها ، ويوضع التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب ، كل في موضعه، وبذلك تكمل الصورة ، وترتفع منزلة الأسلوب في البلاغة ، ومن البدهي أن ابلغ الكلام هو ما لا يلقى فيه بالأحكام الفكرية جزافاً، وإنما يجب

أن يصور الاسلوب المراحل المختلفة لانفعال المتكلم وإحساسه بالتجربة الشعورية التي يصورها .

(٢)

والصورة الادبية بهذا الاصطلاح النقدي كله هو كل شيء في البلاغة ، او أهم شيء فيها . ولو أردنا أن نقول إن الصورة الادبية بهذا المعنى ، وهو ما يرادف الشكل او النظم او الاسلوب جاءت على أبلغ ما يكون الاداء في القرآن الكريم ، وعلى اروع ما يكون التصوير في اسلوب الذكر الحكيم ، لما أتينا بجديد في الموضوع .

إن البلاغة القرآنية تحمل عناصر جديدة كل الجدة ، عما ألف العرب في بلاغاتهم ؛ وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم خرج في اسلوبه وصوره عن النطاق الذي كان العرب يستعملونه من حيث الذكر والحـــذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر ؛ والوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب ، والتشبيه والتمثيل ، والمجاز والإيجاز ، والاستعارة والكناية ، والتمثيل والتعريض ، ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية الى مستوى القمة ، وحد الإعجاز ، ومنزلة السحر والروعة ؛ ولو أردنا أن نوازن بين تشبيه قرآني وبين نظائره من كلام العرب لوجدنا البون شاسعاً ، والفرق بعيداً ، ويطول بنا الامر لو وازنا بين اساليب القرآن وأساليب العرب ، فإن النتيجة التي سنخرج بها من هذه الموازنة هي عظمة القرآن وجلاله وسموه وروعة الاسلوب والسحر فيه .

والعناصر الاخرى الجديدة في الصورة الادبية القرآنية كثيرة لا يمكن حصرها، ولا تزال علوم البلاغة والنقد تسير في طريقها محاولة الكشف عنها، من مثل الوحدة العضوية في الصورة الادبية ، ومن مثل التجربة الأدبية التي

يؤديها البليغ ويحملها كلامه، ومن مثل العاطفة والفكرة والخيال في الصورة، ومن مثل النظم والشكل في النص، ومن مثل اثر الإلهام او الصنعة في الصورة الادبية ، ومن مثـــل الرمزية في الاسلوب او الفكرة ، ومن مثل الوضوح والجمال والتأثير في الاسلوب ؛ وهناك قضايا تناولها النقـاد القدامى تتصل بالصورة الادبية ، كالرقة والجزالة، وكالتعريض والكناية، وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك .

والعناصر القرآنية للصورة الادبية فيه تمثل الجـــدة كل الجدة ، في كل جوانبها وألوانها، سواء منها العناصر القديمة التي تدوول استعمالها في الاسلوب، او العناصر الجديدة التي كشف عنها النقاد المحدثون، او القضايا البيانية المتصلة بالصورة التي كشف عنها النقاد القدماء ، ولو حاولت أن أبين كل ذلك فسوف أكون كمن يحاول أن ينقل ماء البحر كله في ساعة او بعض ساعة ، وكمن يظن أن في قدرته الإحاطة بكل ما كتبه العلمــاء والنقاد في أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

(٣)

وحسبك أن اسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها ، ومن إشراق البيان وجمال الديباجة ، وعبقرية التصوير والتعبير .

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، وبين القوة والعذوبة ، وبين حرارة الايمان وتدفق البيان ، فهو السحر الساحر، والنور الباهر ، والحق الساطع، والصدق المبين .

نظم رائع ، وألفاظ عذبة ، وخيال صادق ، وعاطفة حارة ، وفكر رفيـع ، تملك على القارىء والسامع لبه ووجدانه ، وعقله وبيانه ، ولما سمعه

فصحاء العرب وأرباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين ، وما إيمان عمر حين سمع « طه » ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حين سمع « فصلت » ، وما تردد بلغـــاء العرب على الاماكن التي كان يتعبد فيها محمد ليلاً ، ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، إلا دليل السحر القرآني الذي جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم : إن هو إلا سحر مبين ، وقولهم « إن هذا إلا سحر يؤثر » . السحر القرآني الذي يتمثل فيما يتمثل في صدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، وجمال النظم ، واحكام البيان ، وروعة التصوير .

اي وربي ، وهل تجد افصح ولا اجزل ولا أسلس من ألفاظه ، وهل ترى نظماً احسن تأليفـاً ، وأشد تشاكلاً وروعة من نظمه العجيب ، واسلوبه الغريب ، الآخذ بمجامع القلوب ، ومشاعر النفوس .

إن بلاغة الصورة الادبية وجدّتها في القرآن الكريم لا يحيط بها وصف واصف ، ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها وأسرار إعجازها باحث او ناقد ..

وحسبك روعة القرآن وجدّته وحيويته وأخذه بالافئدة ، والاسماع والمشاعر والعواطف والنفوس ، وحسبك خلوده على مر الايام ، واختلاف البيئات والعصور .

هذه البساطة في الاسلوب ، والوضوح والجمال والدقة والقوة فيه ؛ والجزالة والعذوبة في أطرافه ونواحيه ، تمثل فيما تمثل جانباً من جوانب عظمة التصوير في القرآن الكريم .

وهذا اعرابي سمع قوله تعالى : « **فاصـــدع بما تؤمر ، واعرض عن المشركين** » ، فسجد وقال : سجدت لفصاحته ؛ وهذا آخر سمع قوله تعالى :

« **فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً** » ، فقال : اشهد أن مخلوقاً لا يقـدر على هذا الكلام . .

وماذا نقول في حسن التأليف ، وتخير الالفاظ ، والتئـــام الكلمات ، واحكام الصنعة ، وجودة السبك ، وكال البيان ، وجمال الرونق ، ومتانة النسج ؟ وماذا نقول في هذا النظام الفريد ، والنسق الغريب ، وفي هذه النضارة والجلالة ، وفي ذلك الاشراق والبهاء ودقة الصوغ ؟ .

ألفاظ كأنها السحر ، وكأنها الدر ، تشع نوراً كما يشع الفجر ، وتهدر حركة وحياة ونمواً وتجدداً كما يهدر البحر ، وتهدأ وتعذب وتسلس كما تهدأ صفحة النهر .

وصور تموج كما تموج العواصف ، وتتحرك كما تتحرك الاشباح لراكب مسرع في السير .

وبلاغة هي حديث الايام ، والتي سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالي الاعوام ؛ وما هي إلا الضوء السافر ، والهدي الباهر ، والوحي الصادق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

او رأيت وسمعت ما قاله الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على الرسول وسمع منه، فقال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه .

والسورة القرآنية تطول وقد تقصر، وهي مع ذلك مسلسلة محكمة متصلة الحلقات ، مشرقة الصور والقسمات والصفحات ؛ نسق هو السحر ، وتآخ

وصفاء وتعاقب في الترتيب كأنه الوحدة الآلهية التي دعا إليها القرآن ؛ ممثلة في كلمات .

المعنى عند العربي كان يتم بتمام الجملة، وهذه الجملة قصيرة في نظمهم، ولكل جملة معنى ، وتتوالى المعاني دون ترتيب ولا نظام ؛ وجاء القرآن الكريم ، فصارت الجملة تمثل ارفع المعاني وأدقها ، نظام وتآخ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر ، وقد تطول الجملة القرآنية ، وتتركب فيها الصور ، وتتوالى المشاهد ، وتتعاقب المعاني ، وقد لا يؤدي المعنى القرآني آية او آيات ، بل عشرات الآيات ، ومع ذلك فلن تجد إلا فكراً مهذباً ، ونظاماً محكماً ، وتصويراً منمنماً ، ووشياً منمقاً ، وإحكاماً في الصياغة ، ودقة في الصناعة ، ولن تجد إلا وشياً يبهرك جماله ، ويسحرك جلاله ، ولن تجد إلا العذوبة والرشاقة والسلاسة والوضوح .

والصورة القرآنية تتميز بالحركة ودقة التصوير ، وابراز معالم المعنى جزءاً جزءاً ، وحركة بعد حركة ، وإن شئت فاسمع قوله تعالى : « **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً** » ، وقوله تعالى : « **وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً** » ، وقوله تعالى : « **وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً** » . ولو وقفنا عند هذه الآية الأخيرة ، وهي من سورة الكهف ، لرأينا فيها هذه الحركة العنيفة المتدافعة ممثلة في اروع بيان، وأبسط تعبير ، ولرأينا فيها هذا الإيجاز الرفيع البليغ مع أداء المعنى كاملا غير منقوص ، ولرأينا فيها هذه الصورة البديعة الممثلة لأروع تصوير للغرض المقصود ، الآية ثلاث جمل قصار :

١ — وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض .

٢ — ونفخ في الصور .

٣ — فجمعناهم جمعاً .

وترى في الجملة الأولى الحركة والتدافع والاختلاف والاضطراب وما يصيب الناس من أثر ذلك من اهوال وعذاب وشدة ، والسر في ذلك هو كلمة يموج التي أدت لك الصورة كاملة ، والمشهد رائعاً، والمعنى ممثلا أدق تمثيل، وأدت لك الحركة والحياة ، ومشت بك الى آفاق رحيبة من جلال الأداء وروعة النظم ودقة المعنى وسمو التصوير .

وفي الجملة الثانية لا تجد أبلغ من هذا التمثيل الذي يصور لك قدرة الله معلنة بأروع مظاهر هيمنتها وسيطرتها الى الناس أن قد جاء أمر الله ، وأن نهاية الأمر لا بد أن توضع ، وأن الناس وهم في أمر مريج لا بد أن يستيقظوا لحدث جديد ، وأمر عتيد ، وقدر شديد .

وتجيء الجملة الثالثة تعلن إليك أن الله عز وجل يجمع الناس جميعاً الى ساحته العظيمة ليفصل بينهم يوم القيامة بالحق والميزان، وأن قدرته لا تعجز عن جمعهم مع هول كثرتهم ، وشدة شتاتهم ، ومن ثم جاء التأكيد بالمصدر « جمعاً » ليدلك على عظمة القدرة ، وروعة المشهد ، وجلال اليد المصرفة لأمر الخلق في هذا الموقف العصيب .

ولو أن بليغاً من ابلغ الناس ، ومن أذكاهم وأحذقهم بصناعة البيان ، حاول أن يؤدي هذا المشهد العظيم ويصوره ، وأن يمثل هذا الحدث الجليل ويرسمه ، لما استطاع أن يقول ، ولما قدر أن يتكلم ، ولما أمكنه أن يؤدي هذا المعنى في عمقه ودقته بمثل هذا الأسلوب الساحر بجماله وجلاله وروعته .

اي وربي ، إنه القرآن الحكيم ، إنه الذكر المبين ، إنه الجلال والعظمة ، والإيجاز والإعجاز ، وروعة التصوير التي لا تقف عند حـــد ، ولا تنتهي الى بيان .

وماذا أقول ، وأنا مهما قلت فلن أقول شيئاً ، ولن ابلغ بكلامي مبلغاً ما ؟ .

يا كتاب الله ، يا معجزة القرآن ، يا آية البيان ، يا روعــة الدهور ، يا عظمة العصور ، يا جلال السماء ، يا حكمة الأنبياء ، يا وحياً نزل على محمد ابن عبد الله . . يا كتاب الله . . حسبي ، فإن الإنسان لأعجز عن أن يحيط بما احتويت عليه من أسرار البيان ، ودقائق الفرقان ، وروائع التصوير والتبيان . .

●

الفصل الثالث

البلاغة النبوية

بلاغـــة الرسول :

كان ﷺ أبلغ العرب لساناً وأفصحهم بياناً وأعذبهم أسلوباً وأروعهم حكمة وأصدقهم قولاً وأوضحهم عبارة وأطبعهم على البلاغـــة والفصاحة والبيان . وبلاغته النبوية تلي في منزلتها الأدبية الذكر الحكيم ، وهي هذه البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهي عن السهولة بعيدة ممنوعة . إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، في منزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد فينزو بالدموع ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض ، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء[(١)] .

ولقد أخذ البلغاء والأدباء والمصاقع بهذه البلاغة الباهرة ، حتى لقد قال للرسول ابو بكر : لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذي هو افصح منك فمن أدبك ؟ وحتى قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحـد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره ، فقال عليه الصلاة والسلام «أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، ويقول الجاحظ في بلاغته ﷺ :

---

(١) ٣١٤ إعجاز القرآن للرافعي .

« كلامه ﷺ هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : وما أنا من المتكلفين » .

وهل تجد ابلغ او اروع او اعظم من بلاغته ﷺ . فأنت حين تسمع خطبته النبوية الأولى في اهله وعشيرته لما أنزل الله تعالى قوله الكريم **«وأنذر عشيرتك الأقربين »** : « إن الرائد لا يكذب اهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو ، إني لرسول الله إليكم وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالشر شراً ؛ وانها للجنة ابداً ، او النار أبدا ، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد » ..

لا تجد إلا بلاغة وسحراً وجلالاً وصدقاً وحقاً وروعة وكيف لا وقد أيد الله نبيه الكريم بمعجزة البيـــان ، فاختاره من قريش ابلغ العرب لساناً ، وأصفاه من اعلى بيوتها حيث البلاغة والفصاحة والبيان واللسن والحجة والمنطق ومقارعة البلغاء ومحاورة الفصحاء . ثم نشأته في بني سعد الذين خصوا من بين قبائل العرب بالفصاحة وحسن البيان ، ولذلك قال ﷺ : « أنا افصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر » ؛ ثم علمه لغات جميع قبائل العرب وأقدره على مخاطبة كل قبيلة بلهجتها .

فلا جرم أن يكون المأثور عنه من الحديث صفوة اللغة وحلية البيان بعد القرآن يقتبس الأديب من لفظه ، وينتفع البليغ بصوغه ، ويستمد مفسر القرآن من اثره ، ويستكمل الفقيه الأحكام الشرعية من نصه ، ويشيد اللغوي صرحاً للغة من كلمه ، ويستظهر الحكيم بحكمته ، إذ كان صلوات الله عليه لا ينطق بلغو ، ولا يقصد الى غير توضيح قرآن ، وتقرير شرع ، او هداية الى حق ، او تنفير من شر ، او حكمة ينتفع بها الناس في امور دينهم ودنياهم .

كان بيانه صلوات الله عليه السحر الحلال والضياء اللامع، يشرق من طبع مهذب مصقول ، وخلق في البلاغـــة عريق أصيل ، وفطرة قوية موهوبة تساندت في بنائها اقوى العوامل ، وتعاونت على اذكائها ابلغ المؤثرات ، إذ نشأ وتقلب في افصح القبائل، وأصحها لهجة ، وأخلصها منطقاً وأعذبها بياناً وأرهفها جناناً ، وأقومها سليقة .

كان مولده في بني هاشم ، وهم ذروة قريش سلاسة لسان وسماحة بيان ، وأخواله من بني زهرة ، ورضاعه في سعد بن بكر ، ونشأته في قريش ، وتزوج خديجة وهي من بني اسد ، وكل هـذه القبائل خصها الله بعرق في فصاحة الكلام عريق ، وسبب من اسباب البلاغة وثيق ، وكان هذا التوافق العجيب ، وهذا التماثل في الميلاد والاسترضاع والمنشأ ، إعداداً من الله لنبيه، وتقويماً من ملكته ، وتهذيباً لسليقته ، وتدعيماً لفطرته ، حتى يفقهوا قوله ، ويعقلوا دعوته .

وكان ﷺ ، فصيح المنطق ، سمح البيـــان ، سلس الاسلوب ، قوي العبارة ، لامع الرونق ، رائع الحكمة ، موفق المثل ، مونق اللفظ ، مشرق المعنى ، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل ، ويجد فيه لذة ، إذا تكلم خفتت الأصوات ، وأنصتت الآذان ، وخشعت الجوارح ، وامتلأت القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة .

وهذه اول خطبة لرسول الله ﷺ، حين وقف بمكة يدعو قومه الى الله، يعدهم ويبشرهم ويحذرهم وينذرهم ، ويدعوهم الى نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، قال : « إن الرائد لا يكذب اهله ، والله لو كذبت النـــاس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم حقاً وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء

سوءاً ، وإنها للجنة أبداً او النار ، وانكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد » .

فهذه كلمة الخبير بأسرار النفوس الذي يعرف كيف يمتلكها بحكمته ، ويستولي عليها بموعظته ، ويوجهها الى الخير الذي يريده ، والسعادة الأبدية التي يدعو إليها .

ويروى عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال : ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ ، وسمعته يقول : مات حتف أنفه ، وما سمعتها من عربي قبله ، يريد مات على فراشه[1] . ومثل ذلك قوله ﷺ : الآن حمي الوطيس للدلالة على شدة الحرب، واستعار نارها، والتهاب شررهـــا . فإن الوطيس التنور ومجتمع النيران ، واستعير لشدة الحرب .

وقوله ﷺ : **بعثت في نفس الساعة** أي قريباً منها ، أحسها كما يحس الإنسان أنفاس من يقاربه .

وإذا كان للعرب تصرف واتساع في اللغة بالمجاز والاشتقاق وانتزاع لفظ

---

(١) قال في القاموس وخص الأنف لأنه اراد ان روحه تخرج من انفه بتتابع نفسه، وقال في النهاية : كانوا يتخيلون ان روح المريض تخرج من انفه ، فإن جرح خرجت من جراحه .

ويقول مصطفى صادق الرافعي : « ان موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتـــال ولا امر يؤرخ به في الألسنة مما كانوا يأنفون له . والحتف الهلاك ، فكأن صاحب هذه الميتة إنما ماتت انفته وكبرياؤه ، فلم يرفع الموت انفه في القوم ، بل اذله وأرغمه ، فكان به هلاكه ، لأن حياته كانت في عزته ، وعزته كانت في انفه ، وأنفه هو الذي كبه على الموت ، وإنما مجاز العبارة كما يقال في الكبر : ورم انفه ، وفي العزة حمي انفه ، وكما يقال غضبه على طرف الأنف : إذا كان سريع الغضب ، وجعل انفه في قفاه إذا ضل » .

راجع ص ١١١ إعجاز القرآن للرافعي .

من لفظ ، او ابتداع معنى من معنى ، او اختراع فكرة من فكرة ، فإن ذلك كله في حدود الموجود المتعارف لا يجاوزونه الى المعدوم ، بخلاف المأثور عنه ﷺ ، فهو كثير من بناء على الموجود واختراع لما لا يوجد ..

ومن ألفاظه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ، ويعجبون لانفراده بها ، وهم عرب مثله ، كما عجبوا لفصاحته التي اختص بها ، وهو باق بين أظهرهم ، لم يفارقهم ، ولم ينتقل عن بلدهم ..

وقد روى عنه ﷺ انه قال لأبي تميمة : إياك والمخيلة !! فقال يا رسول الله : نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ قال ﷺ : سبل الازار ، أي الكبر .. فقول ابي تميمة نحن قوم عرب دلالة على أن النبي ﷺ اخترع هذا اللفظ اختراعاً ولم يسبق إليه .

وقوله ﷺ : **هدنة على دخن** ، يريد أن **الصلح** لم يذهب حفائظ الصدور وأضغان القلوب ، فبقي منها كما يبقى من النار تحت الرماد ، **لا يزال يحتفز للاشتعال** .

وقوله لأنجشة العبد وهو يحدو الإبل ويطرب في صوته فتسرع الإبل وتتمايل الهوادج بالنساء : **رفقاً بالقوارير** .. وقوله « يا خيل الله اركبي »[1].

وقوله : « **لا ينتطح عنزان** » ، وقوله : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » قاله لأبي عزّةَ الشاعر ، وكان يحرض عليه ، ويؤلب الناس ضده ، فأسره يوم بدر ثم من عليه وأطلقه ، فعاد الى سيرته ، فأسر يوم أحد ، وسأل النبي أن يمن عليه فقال له : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

وقوله : **اياكم وخضراء الدمن** . قالوا : « وما ذاك يا رسول الله فقال :

---

(١) المراد بالخيل : الفرسان ، لعلاقة المجاورة او الحلية .

المرأة الحسناء في المنبت السوء ، تشبيهاً لهـــذه المرأة بالشجرة الناضرة وسط الدمن .

وقوله : **علق سوطك حيث يراه اهلك** . . الناس بأزمانهم اشبه منهم بآبائهم .. وعد المؤمن كأخذ باليد .. **قد جدع الحلال أنف الغيرة .**

وقوله : **من اطلع من صِير**[1] **باب فقد دَمَرَ** ، أي دخل . . قال ابو عبيدة لم يسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث .

وهذا كله مما كان يشرق في لغته ويلتمع في اسلوبه ، من ابتداع المعاني ، واختراع الألفاظ المناسبة لها ، ومن اوضاع وأخيلة بيانية تلبس حلاها ، وتأخذ زينتها ، وتدعو الأدباء دعوة قوية الى احتذائها واقتباع طرائقها ، واتخاذها مثلاً يسيرون على نهجه وينشئون على هداه .

وذلك كله يعتبر إلهاماً من الله لنبيه وتأييداً بمعجزة البيان ، ردفت معجزة القرآن ، ولقد كان عجباً من العجب في أمره ﷺ أن ترد اليه وفود العرب فيخاطب كل وفد بما يعد من أسرار لغته وغرائب لهجته . ويخاطبهم بلغاتهم مما تجهله قريش ويجهله بعض العرب عن بعض . ويفهم عنهم كذلك ما يدلون به من كلام ، وما يفصل عنهم من خطاب ، حتى عجب من ذلك علي بن أبي طالب حين سمعه يخاطب وفد بني نهد . فقال : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره ؟ فقال ﷺ: أدبني ربي فأحسن تأديبي .

ومن ذلك كتبه الغريبة التي كان يمليها ويبعث بها الى قبـــائل العرب يخاطبهم فيها بلحونهم ، ويجاري ألفاظهم وتعابيرهم فيما يريد أن يلقيه اليهم ،

---

(١) الصير بكسر الصاد الشق .

وهي ألفاظ خاصة بهم ومن يداخلهم ويقاربهم ، ولا تجوز في غير أرضهم ، ولا تسير عنهم فيما يسير من اخبارهم ، ولا تأتلف مع اوضاع اللغة القرشية.

قال الرافعي : فما ندري أي ذلك أعجب : أن ينفرد الرسول بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية . او أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها وخالطوا العرب وسمعوا مناطيقهم حين يتوافدون اليهم في موسم الحج، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه ، ولا يُرَدّدونه في ألسنتهم ، ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشأون عليه من السماع والمحاكاة، حتى كان هذا الباب فيه ﷺ باباً على حدة. وهكذا كان رسول الله يتميز بالفطرة القوية، والطبيعة الملهمة، والموهبة البيانية المبدعة، واللسان الذرب ، والقول الفحل ، والمنطق الفصل ، مما لا يفهم سره ولا يعرف أمره إلا على انه معجزة وإلهام من الله لنبيه ومختاره ومصطفاه .

خصائص البلاغة النبوية :

(ا) أما اسلوب الرسول صلوات الله وسلامه عليه فهو السهل الممتنع والبلاغة القريبة البعيدة والفصاحة المعجزة الرائعة، والنمط الغريب والطريقة المحكمة والنظم العجيب . كان رسول الله ﷺ يوجز غالباً ، ولذلك كانت كلماته حكماً وجوامع وقال : « إنا معشر الأنبياء بكاء[1] » ، وكان يكره الفضول والتشدق وخلابة القول وإلباس الباطل ثوب الحق ، وربما أطال صلوات الله عليه في كلامه للارشاد والوعظ وتبليغ الرسالة، وإن كان الغالب أن يقل كلامه ، ويخرج قصداً في ألفاظه ، محيطاً بمعانيه . هذا الى إحكام

---

(١) أي قليلو الكلام .

الأسلوب في غير تعقيد ولا تكلف ، مع الوضوح والسلاسة ، ومع التخير والرونق ، ومع العذوبة والجلالة ، ومع الإفراغ الجيد والسبك المحكم، ومع الجزالة والقوة والإشراق وجودة التصوير والتأثير ، وحسن الإفهام والمهابة والحلاوة والروعة والقبول ، ومع تجنب سجع الكهان ومن شابههم .

(ب) وأما ألفاظه ﷺ فقد نفي منها الوحشي والغريب والمبتذل والساقط والمستكره ونزهت عن الخطأ واللحن والقصور ، واختيرت اختيار الطبع المتمكن والفطرة السليمة فهي رشيقة جليلة قوية بليغة مشرقة عذبة تنطق عن سلامة الملكة وقوتها .

(ج) وأما معانيه صلوات الله عليه فهي الحكمة الصادقة والأدب الرفيع والحق المنزه عن الريب ، والهدى والنور ، والرأي الناضج والبصيرة النافذة والإلهام الذي وهبه الله إياه .

(د) وأما موضوع حديثه وكلامه صلوات الله عليه فهو :

١ – تبليغ الدعوة وتأييد الرسالة والدعوة الى الدين الحق الخالد الذي لا ريب فيه .

٢ – شرح القرآن والإرشاد الى أحكامه وعبره وعظاته .

٣ – تشريع النظم الاجتماعية والسياسية والعبادات الدينيـــة لخير الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية .

٤ – النعي على المشركين وتقبيح ما هم فيه من عناد وضلال وبهتان وتوجيه عقولهم وألبابهم بأبلغ بيان وأقوم حجة الى الدين والمحجة الواضحة.

٥ – تقرير الإيمان بالأنبياء والمرسلين والملائكة واليوم الآخر .

الى غير ذلك من شتى الموضوعات النبيلة ، والأغراض السامية ، التي دعا إليها الرسول الكريم ، والتي هي من خصائص بلاغته ﷺ .

ولا بدع في كل ذلك ، فميلاده ﷺ في بلاد العرب ونشأته في مكة ، وانحداره من قريش ابلغ العرب وأفصحهم ، وتربيته في بني سعد ، ومخالطته للعرب في مواسم الحج ورحلات التجارة . وتمكن البلاغة والطبع والملكة من نفسه ، والمواقف الفذة الخالدة التي شهدها الرسول ﷺ من الحرب ، ومشاهد الدعوة والغزوات والخطابة في الوفود وفي أنصار الرسالة وإلمامه بلغات العرب ولهجاتهم ، الى غير ذلك كله ، كان من بواعث البلاغة وأسباب الفصاحة في نفسه وحياته صلوات الله عليه .

ويقول الزيات في البلاغة النبوية[1] : إن بلاغة الرسول من صنع الله ، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن قياسه ، فنحن لا ندرك كنهه ، وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره . هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ، وهل يعلم من اسرار الروض غير العطر والنضارة ، وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلال والروعة . إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية . وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغة صفة محمد وحده .

أثر الحديث في الأدب العربي :

وأثر الحديث النبوي في الأدب العربي يمكننا تلخيصه فيما يلي :

---

(١) وحي الرسالة ٣ : ٧٩ .

(ا) أثره في الألفاظ والأساليب :

١ – زاد الحديث النبوي ألفاظا جديدة ، كتسميته : « صفر الأول » محرماً وكلفظ الزمارة للزانية ، التي وردت في حديث أبى هريرة : « إن النبي نهى عن كسب الزمارة » وككلمة الصير بمعنى الشق في قوله صلى الله عليه وسلم « من اطلع من صيرِ باب فقد دَمَّر » .

وللحديث الشريف أثر في توسيع معاني بعض الألفاظ واشتقاق اخرى ، مما لا داعي للافاضة فيه .

٢ – ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة، وتثقيف الطباع والقضاء على الحوشية والغرابة والمعاظلة والتعقيد في البيان ، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الاسلوب والبيان .

٣ – قضى على سجع الكهان ، ورفع منزلة النثر .

٤ – زاد كثيراً من الأساليب البليغة في الأدب العربي .

(ب) أثره في المعاني :

وقد أثر الحديث في معـــاني الأدب والأدباء والشعراء وأخيلتهم تأثيراً كبيراً، فنضجت بسببه معانيهم، ودقت أفكارهم وحصفت آراؤهم، وأصبحت كذلك يسودها الاحكام والترتيب ، ويغلب عليها السمو والطهر والنزوع الى المثل العليا والمبادىء الشريفة .

(ج) أثره في أغراض الأدب :

١ – وقد أثرت البلاغة النبوية في اغراض الأدب العربي تأثيراً كبيراً ، فهجر بسببها الهجاء الكاذب والفخر المبالغ فيـــه والهجاء الماجن ، والدعوة الجاهلية الى الانتقام والأخذ بالثأر وإثارة العصبية .

٢ — وأصبحت أغراض الأدب تحتذي البلاغة النبوية في أغراضهـــا ، فلا يقول الأديب ولا ينظم الشاعر إلا في الدعوة الى الخير والحق والاسلام ، وفي تأييد العقيدة الاسلامية ، وفي كل شريف من الأغراض ، وكريم من الموضوعات .

٣ — وصار الحديث النبوي كذلك محوراً لعلوم دينية وعربية كثيرة وضعت لدراسة الحديث .

٤ — كما ساعد الحديث النبوي على توحيد لهجات العربية وعلى ذيوعهـــا وخلودها ، فهو متمم للقرآن الكريم في هذا الميدان .

●

الفصل الرابع

النثر في صدر الإسلام

النثر يحتل المنزلة الأولى :

تبدلت أوضاع الحياة العربية بعد الإسلام تبدلاً ملموساً ، وتغير أعظم التغير مظهرها ، وانقلب انقلاباً شديداً جوهرها ، وأصبح السمت غير السمت ، والسلوك غير السلوك ، والخلائق والشيم غير تلك التي كانت تشيع في الجاهلية ، وتسيطر على مناحي الفكر .

كانت الحياة الفكرية في الجاهلية تعتمد على الشعر ، به مفاخراتهم ومنافراتهم ، وعليه تقوم خصوماتهم . فكان لسانهم المعبر عن كل ما يضطرم في صدورهم من أفكار ، ويختلج في أفئدتهم من أحاسيس .

فلما جاء الإسلام طوى ذلك البساط بما عليه من تنافر وتناحر ، وما يضم من أحقاد غادرة ، وأضغان ثائرة ، وخصومات منكرة ، وقضى على تلك الحمية : حمية الجاهلية ، وبَغَّضَ الى الناس التفاخر بالآباء والأنساب وأمتن على أتباعه وأوليائه بأن الله أذهب عنهم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء . فقال ﷺ : « أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

ولما كان شعر الجاهلية يحمل بين أطوائه كل المعاني التي حرمها الإسلام وأزرى بها ، فقد كرهه الإسلام وأبغضه ، وقال فيه الرسول ﷺ : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً فيريه[1] خير له من أن يمتلىء شعراً » .

---

(١) يريه : أي يفسده ؛ وروى القيح لجوف كوعي : أفسده .

لم تقم للشعر في ظلال الاسلام الدولة التي كانت له إبّان الجاهلية ، لأن الاسلام دين العفة والاخاء والوفاء ، وصدق الحديث . إنما انتقلت راية الكلام للنثر ، الذي حمل أعباء الفكر ، ونهض وحده غالباً بالدعوة الجديدة يبين مزاياها ، ويكشف أسرارها ، ويحـــاجُّ خصومها ، ويجادلهم بالتي هي أحسن .

دعا به النبي ﷺ قومه الى الله ، وبصَّرهم بمحاسن الاسلام ، وحذَّرهم وأنذرهم ووعدهم وبشرهم ، وكتب به الى أمرائهم وأقيالهم ، ثم كان هذا النثر لسان الدولة التي أحدثها الاسلام ، فكانت تكتب به العهود ، وتصاغ الوصايا ، وتدون دساتير الولاة ومناهج الرؤساء وسياسة الحكام .

وعلى مقدار تنوع الحياة الاسلامية ، وتعدد ألوانها ، وتشعب مظاهرها عظمت رسالة النثر ، واتسعت مهمته ، فكان لسان الخلفاء والأمراء والولاة .

والواقع أنه حيث يكون الملك ، وتكون الدولة بمـا يستتبعها من أمر ونهي ، وحث وزجر ، وأخذ ورد ، ورسم سياسة وتبريرها ، وإقامة حدود ومعالم وتبيينها ، يكون المكان الأول في هذه الدولة للنثر ، ولا يستطيع الشعر أن ينهض بما تقوم به من أعباء ، وما يؤدى من رسالات متعددة متنوعة .

ولمـا كان النثر يتخذ مظهر الحديث النبوي والخطابة أحياناً ، ومظهر الرسائل أحياناً أخرى ، وكنا قد تحدثنا عن بلاغة الحديث النبوي ، فسوف ندرس أدب الخطابة وأدب الرسائل في الفصول التالية .

الخطابة الإسلامية

بين الجاهلية والاسلام :

عرفنا الخطابة في الجاهلية ضيقة الأغراض ، قصيرة الآفاق ، محدودة الموضوعات والمظاهر ؛ او كانت على الأقل هكذا فيما انحدر إلينا من آثارها ، وتناهى إلينا من تراثها ، وكان يشاركها الشعر في التعبير عن مناحي الفكر ، وخوالج النفس ، بل كان الشعر في أهم المواقف وأعظم الأحداث اللسان الناطق الذي يؤرّث نار الحروب ، او يضع لبنات السلم ، او يلفت الناس الى فضيلة من الفضائل ، او ينبههم على أمر من الامور .

ولأن الخطابة لم تكن ممـا تدون في صحف ، او تكتب في رقاع ، او يسهل على الذاكرة اختزانها ، لم يكن اهتمام القوم بها كاهتمامهم بالشعر ، إنما يبعث عليها عندهم حدث طارىء او أمر مفاجىء ربمـا لم يكونوا قد أعدوا له عدته او اتخذوا له أهبته .

وجاء الاسلام فتهيأ للخطابة في ظله من نباهة الشأن ، وارتفاع الذكر ، وعلو المكانة ، وعظمة المنزلة ، ما لم يتهيأ لها من قبل ..

أصبحت أداة الدعوة ، واللسان الناطق بالرسالة ، تشرح للناس أسرارها ،

وتبين المثل والقيم التي أتت بهـــا ، وتوضح خفاياها ، وتحبب الناس فيها ، وتدلهم على الهدى والحق والرشد والصلاح . وتجادل خصومها ، وتفند آراء المخالفين لها .

وإذا علمنا أن الكتابة لم تكن قد شاعت ولا فشت ، وأن الاسلام قد كره الشعر ، لما يحمل من المنافرات والمفاخرات وشدة الحمية ، أدركنا رسالة الخطابة في الاسلام ، وجسامة مهمتها ، وعظم شأنها ، وقيامها بكل أمر جل او صغر .

اعتمد عليها رسول الله ﷺ من لدن قام بأمر ربه يدعو عشيرته الأقربين ، ثم كان يذهب الى أحياء العرب ، يعرض عليهم دعوته ، ويشرح في كل موقف عقيدته ، وكان يلقى الناس في الأسواق العامة ، وفي مواسم الحج ، ويخطبهم ويقول لهم : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . ثم انتقل الى يثرب يدعو الى الله على بصيرة ، ويقوم في مجتمعات جديدة يشرح لهم ببيانه ، ويفيض عليهم من عذوبة لفظه وسماحة لسانه ، وكانت تجيئه وفود العرب فيخطب في كل وفـد ، يدعوهم الى الدين ، او يبين لهم الأحكام الشرعية والآداب الدينية كما أمر رب العالمين ، بقوله تعالى : « **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** » ، وكما كان يقول لهم ﷺ : ألا أخبركم بأحبكم الي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامـــة ؟ أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون .

وكانت الخطابة لخلفائه من بعده أداة يرسمون بها سياستهم في رعاياهم ، ويحددون دساتيرهم التي يلتزمونها في حكم الناس ومعاملاتهم ، او يحضون فيها على غزوة او جهاد .

أسباب ازدهار الخطابة :

ولعل الذي مكن للخطابة وجعلها منشورة الراية ، مرفوعة الذرى ،

يسرع إليها كل من واجهته مشكلة ، او اختلجت في نفسه فكرة ، او نقم من السلطان أمراً ، او داخلته من الوالي ريبة في بعض تصرفاته .

لعل الذي مكن لها هـــذا التمكين هو أولاً **ما أسبغه الاسلام على هذا المجتمع** من صراحة ، وما غرسه فيه من حرية واسعة يستطيع بها الانسان أن يراجع ويناقش ويجـادل ويخاصم ، ويمدح السلطان او يثلبه ويؤيده او يخذله . وهذه الحرية قد اتسع مداها ، وامتد افقها ، حتى شملت النساء ، فلم تكن المرأة تسكت عما تظن أنه حق لها ، بل تخطب في ذلك وتتحدث وتجادل .. لقد ذهبت امرأة الى رسول الله ﷺ ، وقالت يا رسول الله ، إني وافدة النساء إليك ، ثم ذكرت ما للرجال من الأجر ، ثم تساءلت : فما لنا من ذلك يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « أبلغي من لقيت من النســاء أن طاعة الزوج ، واعترافاً بحقه ، يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله » — وقالت أخرى : « يا رسول الله ، غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً تحدثنا فيه ، ولهم كذلك » .

وكانت امرأة تعترض طريق عمر بن الخطاب وهو يخطب فتراجعه ، حتى لقد يرجع عن رأيه ، ويقول : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

وكانت أم المؤمنين عائشة تخطب لترد على خصوم أبيهـــا وتبين مآثره وتذكر مفاخره .

وكانت أم الخير بنت الحريش البارقية تؤيد علياً كرم الله وجهه في سياسته وتخطب في ذلك الخطب التي تلهب النفوس وتثير الحمـاس ، وتدفع الناس دفعاً الى مقابلة أعدائهم والكر عليهم بسيوفهم ورماحهم ، حتى لقد أوفدت الى معاوية بعد أن استقر له الأمر واستتب السلطان ، فسألها عن كلامها حين قتل عمار بن ياسر فقالت : لم أكن زوَّرته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة ، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت ، فقال معاوية : لا أشاء ذلك ..

هذه بعض مآثر الحرية على الخطابة في ظلال الإسلام .

ثم كان الجهـــاد في سبيل الله ، وما يستلزمه من تحميس الناس له وتحريضهم عليه .

وكذلك جعل أمور الدولة شورى بين المسلمين .

هذا الى ما في القوم من **ملكة أصيلة** في البيان ، ومطاوعة سهلة في أزمّة الكلام ، حتى لم يكن يصعب عليهم قول أو يندُّ عن أذهانهم خطاب . وكان ذلك كله داعياً الى نهضة الخطابة وازدهارها .

أغراض الخطابة :

والدارس لأطوار الخطابة في هـــذه الفترة يلمس في وضوح كيف كانت تؤدي رسالتها في قوة ودأب لا يعوقها ضعف ، ولا يلوي بها فتور او اعياء حتى نهضت بهذه الموضوعات :

١ – دعوة الناس الى الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، بدلاً من المفاخرات والمنافرات التي كانت تهدف إليها الخطب في الجاهلية .

٢ – الحث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله وإثارة الإيمان والعقيدة في النفوس حتى تقبل على الحرب بعزيمة صادقة وهمّة متفانية ، بدلاً من الخطب التي كانت تدعو في الجاهلية الى السلب والنهب والأخـذ بالثأر والتحريض على الغارة .

٣ – شرح آداب الدين وفضائله ، وتبيان أسراره ومزاياه ولفت الناس الى ما يصلحهم في دنياهم ويسعدهم في أخراهم .

٤ – وليس أدل على شرف الخطابة ورعاية الإسلام لهـا حق الرعاية من

أنه يجعلها جزءاً من العبادة في كل أسبوع وفي الاعياد ، وفي كل ما ينوب المسلمين من أحداث وملمات .

٥ ــ الدعوة الى الزهد ، والى ترك الانغماس في ملذات الدنيا ونعيمها .

٦ ــ وأخيراً لقد استعملت الخطابة في كل ما جاشت به صدورهم ، من دفاع عن رأي ، او تحمس لمبدأ ، او شرح لنهج سياسي ، ونحو ذلك مما استلزمته الخلافة الإسلامية ونظامها الجديد ، كالوعظ والقصص والحكمة .

خصائص الخطابة الاسلامية :

تتسم الخطابة الاسلامية :

١ ــ بأنها كانت تقوم على الإقناع والتأثير في النفوس ، بالأدلة الساطعة ، والبراهين الناصعة ، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وأحياناً بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل .

٢ ــ وبأنها كانت تلتزم في مبدئها سمتاً واحداً ، وهو حمد الله وتوحيده والثناء عليه بما هو أهله ، وقد ينضم الى ذلك الصلاة على رسول الله وأتباعه ، وكانوا يحرصون أشــد الحرص على بدء الخطبة بالحمد ، حتى عابوا على زياد خطبته التي خلت منـه ، وسموها « البتراء » وكانوا يختمون الخطبة بمثل « أقول قولي هــذا واستغفر الله لي ولكم » . وكان أبو بكر يختم خطبه بقوله : « اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك » وكان عمر يلتزم في الآخر قوله « اللهم لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غرة ، ولا تجعلني من الغافلين » .

٣ ــ أما أسلوب الخطابة في هــذا العصر فهو الأسلوب الفطري الذي يساوق الطبع ، ويوائم السليقة ، ولا يعتسف في لفظ او فكر او خيال . فهو لين هادىء ، او ثائر عاصف، على حسب المقتضيات . ووفقاً للأحوال مع

وضوح اللفظ وسهولة الأسلوب . والانسجام التام في بناء الكلمات ، وترك السجع المرذول ، وهجر الوحشي ، والبعد عن التكلف ، والإيجاز في موضع الإيجاز والاطناب فيما يستدعي الاطناب والاطالة ..

أما ما بقي للخطابة من سماتها القديمة فهو القيام على نشز من الأرض ، ذلك للإشراف على السامعين ، او لعل ذلك أصل سنة المنبر في المساجد ، وكان الخطيب اذا قام للخطابة اعتمد على شيء في يده كسيف او قوس اوعصا ، وقد يجمع بين السيف او القوس في يساره ، والعصا في يمينه وكانوا يحرصون على اعتجار العمامة ، والاشتمال بالرداء ، وإصابة الاشارة ، وحسن السمت ، وجهارة الصوت ، وتمام الوقار ، وكل ما يدعو الى التأثير في نفوس السامعين .

أشهر الخطباء :

امتاز هذا العصر بكثرة الخطباء البلغاء كثرة رائعة ، وفي صدر الخطباء الخطيب الأول والزعيم الروحي الأعظم محمد صلوات الله عليه .

ومن الخطباء : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعائشة وخالد وعبد الله ابن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، ومعاوية ، وسواهم من أعلام الخطباء والبلغاء ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن الخطباء المشهورين : عطارد بن حاجب بن زرارة وكان الخطيب عند النبي ﷺ كما يقول الجاحظ[1] .

---

(١) ٢١٤ جـ ١ البيان والتبيين .

صُوَرٌ من الخطابة الإسلاميّة

(١)

■ كانت أول جمعة للنبي الكريم بالمدينة خطب المسلمين فكان مما قال :
« الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة ، في فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنوّ من الساعة ، وقرب من الأجل . . ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصه فقد غوى ، وفرط ، وضل ضلالاً بعيـــداً ، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم : أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله يوقي مقته ، ويوقي عقوبته ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضي الرب ، ويرفع الدرجة .

(٢)

خطبة النبي ﷺ أيام التشريق
وهي خطبته في حجة الوداع [١]

تمهيد :

النبي ﷺ خير ناطق من البشر ، وقد كان في براعة منزعه ، وإيجاز كلمه ، ونصاعة لفظه ، وجزالة قوله ، وصحة معانيه ، وصدق توجيهاته ، بالمحل الأرفع والمكانة التي لا تجهل .

وقد أخرج البيهقي في « شعب الإيمان » أن أصحاب رسول الله قالوا له : ما رأينا الذي هو أفصح منك ، قال : وما يمنعني ، وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، وفي رواية أنه قال : أنا أفصح العرب بيـد أنّي من قريش ونشأت في بني سعد .

وهذه الخطبة من كلمه ﷺ الذي يتمثل فيه صحة الطبع ، لا يتكلف فيه في سجع ولا غير سجع ، ويتجلى فيه كيف تكون السهولة مع غزارة المادة ، وإذا كانت الخطب محل إطناب كما قالوا فإنك سترى أن الإيجاز هنا زاحم الاطناب وتغلب عليه ، مع تحقيق الغرض المطلوب من الاطناب ؛ وذلك شيء لا يتيسر إلا لمثل الرسول ﷺ ، ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب ، وقليل ما هم . وأيام التشريق هي أيام النحر ، والأصل في التشريق تقديد اللحم ، أو لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس .

---

(١) كانت في السنة العاشرة من الهجرة الشريفة ، وهي السنة التي توفي فيها ابنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم .

نص الخطبة :

يقول رسول الله صلوات الله عليه[1] ، بعد حمد الله :

أيها الناس ، هل تدرون في أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم ؟ قالوا : في يوم حرام ، وفي شهر حرام ، وفي بلد حرام ، قال : ألا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا الى يوم تلقونه — ثم قال :

اسمعوا مني تعيشوا ، ألا لا تظّلموا [2] (ثلاثاً) ..

ألا انه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه ، ألا ان كل دم ومال ومأثرة[3] كانت في الحياة الجاهلية تحت قدمي هذه ، ألا وان أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ألا وان كل ربا كان في الجاهلية موضوع [4] ، ألا وان الله تعالى قضى أول ربا يوضح ربا عمي العباس ، لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ، ولا تظلمون ، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض : « منها أربعة حرم ؛ ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم » ، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينكم[5] :

---

(١) عن أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن (ص ١٦١ طبع صبيح) .

(٢) لا يظلم بعضكم بعضاً .

(٣) المأثرة بفتح الثاء وضمها كالأثرة : المكرمة المتوارثة ، وكانت هناك امتيازات لا مبرر لها فألغاها الإسلام .

(٤) من وضعه يضعه وضعاً وموضعاً بكسر الضاد والفتح : إذا حطه .

(٥) التحريش : الإغراء .

اتقوا الله في النساء ، فإنهن عوان عندكم [1] لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإن لهن عليكم حقاً ولكم عليهن حق ، ألا يوطئن فرشكم غيركم . فإن خفتم نشوزهن [2] فاهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . فإنما أخذتموهن بأمانة الله تعالى ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .

ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها .

ثم بسط يده فقال : ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد الغائب . فرب مبلّغ خير من سامع .

المناسبة التاريخية للخطبة :

ارتجل النبي ﷺ هـذه الخطبة الرائعة في أيام التشريق وهي الأيام التي ينحر فيها الهدي في موسم الحج . وهي آخر خطبه صلوات الله عليه ، ودّع فيها المسلمين ، وأومأ الى ذلك ، وكان مبلّغ رسول الله الى الناس بعرفة هو ربيعة بن أمية بن خلف .

موضوع الخطبة :

موضوعها التحذير من البغي والعدوان وسنن الجاهلية الأولى ، التي يخشى أن يعود الناس إليهـا ، فيفسد عليهم دينهم وتعود إليهم جاهليتهم ؛ وقد أوردها النبي ﷺ في صور مختلفة تحفظ كل نفس كريمة من التورط في الاثم والعدوان .

---

(١) عوان : جمع عانية وهي الأسيرة .

(٢) نشزت المرأة تنشز بكسر الشين وضمها ؛ استعصت على زوجها وأبغضته .

فحواها ومنهجها :

١ ــ بدأها النبي ﷺ بأسلوب الاستفهام العظيم الذي ينبه الأذهان الغافلة ويحرك العقول الراكدة ، وان المسؤل يشعر ان عليه عبء الإجابة ولا يستريح إلا بإلقاء الجواب ، فهو في حركة ذهنية حتى يصل الى المطلوب ، فيستقر في نفسه ، وما اكثر ذلك في السنــة النبوية ، كقوله : اتدرون من المفلس .. وحديث السؤال عن شجرة لا يسقط ورقها وما الى ذلك ، وكان السؤال عن اليوم والشهر والبلد وكلها حرم ليشبه بها ما حرم الله سبحانه وتعــالى من اموال واعراض ودماء المسلمين ليستقر المعنى افضل استقرار ولا ينفلت من الأذهان ، ومن اللطيف انها ثلاثة معروفة التحريم ، وتقابلها ثلاثة يراد تقرير تحريمها في نفوس السامعين .

٢ ــ اعاد النبي ﷺ بيان تحريم الدماء والأموال وجعل الثالثة اخيراً وهي الأعراض ، عناية بأمر الدماء والأموال ، التي يحرص الشارع كل الحرص على تحريمها ، فهي مكررة في صورتين ، واما الأعراض فإن الشرف قد يحول دون الخوض فيها إلا في طائفة معينة ، فلهــذا كرر الدماء والأموال في امر التحريم . وقد اكد الأمر في صدد هذه الاعادة بقوله (اسمعوا .. تعيشوا) فجعل العيش الصالح مرتباً على سماع الامتثال والقبول ، وبين ان الأمر جد نافذ حتى نفذه الرسول ﷺ في اقرب الناس إليه ، فكل الدماء والأموال والمآثر حقيرة تحت قدم النبي .

٣ ــ وردّ الأمر في النسيء الى اصله ، فبين ان الزمان قد رجع كما خلقه الله عليــه بإلغاء النسيء ، وكانوا يحتالون به للسير في حروبهم ، وإرواء عطشهم للدماء ، ثم نهى عن الظلم في الأشهر الحرم .

٤ ــ ثم خص ناحية خطرة من مظــالم الجاهلية ، تأكيداً لدعوة الاسلام

فيها ، وقضـاء على سنة الجاهلية في امرها ، وهي ناحية المرأة فبين ما لها وذكر ما عليها ، فعليها حفظ الرجل ، وعلى الرجل رزقهـا وكسوتها بالمعروف . وعلل ذلك فانها امانة اودعها الله عنده، لأن كلمة الله هي التي احلت المرأة للرجل ، وجعلته يحوزها ويملكها ملكاً جزئياً له المتعة منها والطاعة عليها ، و (كلمة الله) : ما شرعه من إباحتها بالعقد الشرعي ، ثم ختم بالاستفهام ليحمل السامع التبعة كأنه اخـذ عن الله صاحب الامر الحقيقي ، وامر السامع ان يبلغ من لم يسمع .

٥ – ومعانيها قوية ساميـة منسقة متجاوبة ، ومثلها لا يصدر إلا عن هذه النفس الكريمة وما اقوى واروع قوله : « ألا وان الشيطان قد يئس ان يعبـده المصلون ، ولكن في التحريش بينكم » وتمتاز معانيها بالدقة والوضوح مع التناول .

أسلوبها :

اسلوبها هو الاسلوب السلس السهل السائغ الممتنع ، مع حفلِهِ بالمعاني وغزير الحكم ، ويتجلى لك ذلك فيما تتركه من الاثر في النفوس مع خلوها من الغريب النافر والمستكره الحوشي والتعقيد اللفظي والمعنوي ، فهي مرتبة ترتيباً مشرقاً وواضحة الدلالة على معانيها مع إيجاز لا اخلال فيه ولا التواء .

ويتجلى في اسلوبها التأثر بالقرآن والانتفاع به ، وهو مؤدب الرسول ﷺ في قوله وفعله ، وقد اقتبس منه ثلاثة مواضع : قوله « لكم رؤوس اموالكم » ، « منها اربعة حرم .. » ، « فإن خفتم نشوزهن .. » .

وتتجلى السهولة فيما فيها من استعارات وكنايات قريبة كقوله ﷺ : « لا يوطئن فرشكم غيركم » ، « تحت قدمي هذه » وتشبيهاتها رائعة خلابة ، اصابت غرة الهدف وجاءت متساوقة في المقام .

تأثرها بالقرآن الكريم :

والخطبة تحتذي اسلوب القرآن الكريم وطريقة تصويره وجمال تعبيره ، فتراها حلوة الألفاظ عذبة الكلمات سلسة العبارات متجاوبة الفقرات يتزاوج فيها المبنى مع المعنى وتتلاحق فيها الأفكار منسقة متجانسة ، وتدق فيها الاستعارات وتلطف الكنايات وتصدق التشبيهات ، وتختال الفكرة في مطارف مفوفة من سحر البيان وروائع الافتتان ، وحسبك بياناً انه النبي العربي افصح من تفتحت عنه اكام البيان واستقام له صفاء الوجدان .

مضمون الخطبة :

١ ــ الدعوة الى التوحيد الخالص ، والإيمان الكامل .

٢ ــ الدعوة الى وجوب احترام حقوق الإنسان وبخاصة في النفس والمال والعرض .

٣ ــ إلغاء التعامل بالربا .

٤ ــ تأكيد حقوق المرأة ووجوب رعايتها ورعاية العلاقة الزوجية .

٥ ــ صيانة الروابط الدينية والأخوية بين المؤمنين .

٦ ــ اعلان المساواة التامة بين بني الإنسان في الحقوق والواجبات مساواة تامة بغض النظر عن اللون والجنس .

٧ ــ التحذير من فتن الشيطان والتنبيه الى وجوب التزام اليقظة والحذر من وسائل إفساده للأخوّة بين المسلمين وتفريق صفوفهم .

٨ ــ الدعوة الى وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، لانها الهدى الذي لا يضل من تمسك به .

٩ ــ الدعوة الى تبليغ الرسالة للناس كافة .

وهكذا رأينا الخطبة إعلاناً دستورياً للرسالة المحمدية وللأمة الإسلامية كافة .

(٣)

« خطبة ابي بكر الصديق يوم السقيفة »

السقيفة : ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة سيد الأوس والخزرج، اجتمع فيها اصحاب رسول الله بعد وفاته ، يريدون انتخاب خليفة لرسول الله منهم ، وكانوا يؤثرون بالخلافة سعد بن عبادة . وخطبهم سعد مبيناً ما للأنصار من الفضل والسبق الى حماية رسول الله وأنه لا ينبغي أن ينازعهم أحد في هذا الأمر ، فرد عليه الأنصار جميعاً اوسهم وخزرجهم : أصبت ووفقت ، ثم اخـــذوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض : فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش ، وقالوا : نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم ؟ ، فاجتمعوا على أن يردوا بقولهم : منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا ، فقال سعد لما سمعها : هذا اول الوهن .

بلغ نبأ هذا الاجتماع كبار الصحابة ، فمضى ابو بكر وعمر وغيرهما الى الى السقيفة مسرعين ، حتى وصلوا إليها ، وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه في نفسه ، فقال له ابو بكر : على رسلك ، وكان ابو بكر رجلاً وقوراً فيه أناة ، فتقدم وخطب الناس ، فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب في سبيل الاسلام والرسول ، ثم كر على الانصار فذكر مآثرهم وأثنى عليهم ، ولم يترك شيئاً مما لهم من المناقب إلا ذكره ، ثم روى لهم ما أثر عن رسول الله من قوله: الأئمة من قريش، ثم قال : فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضي دونكم الأمور .

فلما أتم ابو بكر خطابه أخذ الانصار يتجادلون ، ثم تقدم عمر وأبو عبيدة ، وكان ابو بكر يرشحها للخلافة ، فقالا لأبي بكر : والله لا نتولى

هذا الأمر عليك فإنك افضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة افضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك او يتولى هـذا عليك ، ابسط يدك لنبايعك ، فمد عمر يده إليه فبايعه ثم ابو عبيدة ثم المسلمون كافة . وبهذا تمت الخلافة لأبي بكر .

النص :

حمد ابو بكر الله عز وجل وأثنى عليه ، ثم قال :

ايها الناس نحن المهاجرون اول النـاس إسلاماً ، وأكرمهم احساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله (ص) ، أسلمنا قبلكم ، وقـُدّمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « **والسابقون الأولون من المهـاجرين والأنصار والذين اتـّبعوهم باحسان** » ، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيء[1] وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الامراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا[2] على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

تحليل النص :

١ – شخصية القائل ، وعظمة المناسبة، يجعلان لهذا النص خطراً وجلالاً فوق خطره الأدبي وجلاله البياني .

إن هذا الموقف الرهيب لم يحل بين ابي بكر الصديق ، وبين الجمهـور

---

(١) هو الغنيمة والخراج .

(٢) لا تنفسوا عليهم : أي لا تحسدوهم .

بالرأي ، والنطق بالحق ، وإصابة سواء المفصل ، وإقناع المسلمين بالحجة والبرهان .

بعد وفاة الرسول الاعظم كان الخلاف حول خلافة رسول الله شديداً ، فالأنصار مع ما بينهم من خصومات جاهلية يريدونها لأنفسهم ، والمهاجرون مع ورعهم وسابقتهم في الدين ونأيهم عن طلب شيء من الدنيا ، يريدونها لهم ، ولكنهم لا يريدونها لأنها وظيفة دنيوية ، بل لأنها منصب ديني ، يتمكن منه الذي يليه من إعزاز راية الإسلام ونشر مبادىء العقيدة الإسلامية .

وفي هذا الموقف يمتحن ابو بكر امتحاناً شديداً ، كل كلمة محسوبة عليه ، وكل حرف دليل لإدانة او تهمة ، ويتبين في هذا الموقف عظمة أبي بكر وجلالته وبعد فراسته . إنه لم يطعن على احد ، ولم يعب احداً ، ولم يطلب لنفسه شيئاً ، فماذا قال :

١ — حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله .

٢ — ثم بين فضل المهاجرين وسابقتهم في الاسلام ، واستعدادهم لتحمل أعباء السيادة وتكاليف الشرف ، مع ما لهم من مجد وحسب وما يتصفون به من سماحة وجود وأريحية ومن كثرة عدد ، ومن شدة قرب من الرسول الاعظم بالنسب ، ومع ما لهم كذلك من شرف تليد ومفاخر قديمة تقرُّبها العرب ، ثم أصاب المحزّ بالاستدلال بالقرآن الكريم حين قدمهم في الذكر على إخوانهم الانصار .

٣ — ثم عاد الى الانصار ، فوصفهم بالاخوة في الدين وبالشركاء في الغنيمة ، وليس هناك وصف ابلغ من وصفه لهم بالاخوة ، وقد عادل في وصفهم لهم بين الاخوة في الدين والشركة في المال ، أي في الدنيا ، تمام المعادلة وأبلغها ، ثم كرر وصفه لهم بأنهم أنصار إخوانهم المهاجرين على الاعداء . . وذكر

فضلهم بقوله : آويتم وواسيتم ، أي آويتم من لا وطن لهم وهم المهاجرون ، وواسيتموهم في المحنة والشدائد والخطوب حين عز النصير ، ثم دعا الله بأن يتولى الله جزاءهم الحسن .

٤ – ثم عاد بعد كل ذلك الى تقرير الأمر ، وتوضيح الراي ، وحل المشكلة بأن يكون من المهاجرين الخليفة ، ومن الانصار وزراؤه وأعوانه ، وعلل ذلك تعليلاً سياسياً بعيد النظرة ، وهو ان العرب لا تخضع ولا تدين بالطاعة إلا لقريش ، فخصص الخلافة بأنها يجب ان تكون من بين المهاجرين في قريش ، وليس احد يستطيع ان ينافس قريشاً في المجد والشرف في العرب قاطبة .. وحث بعد ذلك الانصار على قبول هدا الحكم ، ناهياً إياهم ان يحسدوا اخوانهم المهاجرين على ما منحهم الله من فضله .

وبذلك استقام الرأي ، واتضح وجه الصواب ، وبانت السبيل ، دون ان يسب ابو بكر احداً ، او يطعن على قبيل ، او يطلب لنفسه شيئاً ، وما ابلغ ما كرر ابو بكر من وصف الانصار بأنهم اخوان المهاجرين ، فالمسألة إذن لم تتجاوز حد الخلافة بين اسرة واحدة ، واشقاء اصفياء ، وما ابلغ ما استدل به ابو بكر من القرآن الكريم ، وما اكده من ان تولّي احد من الانصار للأمر بعد رسول الله سوف يكون له نتائجه بين العرب ، وقد اعتادوا ان لا يقبلوا رياسةَ غيرِ قريش عليهم .

إن يوم السقيفة هو يوم البيعة العامة لخليفة رسول الله .. وقد اتسم هذا اليوم بمظهر ديمقراطي سليم ، فكبار الصحابة واعلام الاسلام ، كلهم اشتركوا في الرأي وانتهوا الى ما انتهى إليه ابو بكر من ان الخلافة يجب ان تستقر في المهاجرين دون الانصار ، وفي قريش خاصة من بين المهاجرين ، والانصار لهم من ذلك منزلة الوزراء من الامراء .

الصورة الأدبية في النص :

١ — هذه الخطابة تمثّلُ في إيجازها ووضوحها وصدقها وبساطة اسلوبها وجلال مغزاها وروحها ، البلاغة في اسمى منازلها ، والفصاحة في اعلى قممها .

ووصف ابي بكر للمهاجرين بالسابقة في الاسلام وصفٌ اصاب به المحز ، وما اروع ما وصفهم به من كرم الاحساب ، وما اروع الكناية عن السيادة بقوله « واوسطهم دارا » والكناية عن السماحة بقوله « واحسنهم وجوهاً » ، والكناية عن القوة بقوله (واكثرهم ولادةً في العرب) لان الكثرة دليل القوة عند العقل .

٢ — ووصفه الانصار بأنهم إخوان المهاجرين في الدين وشركاؤهم في الغنائم وانصارهم على الاعداء وصف دقيق رائع بليغ ، وما ابلغ وصفه لهم بقوله : « آويتم » اي اضفتم المهاجرين الخارجين من وطنهم ومالهم ، وقبلتم ان ينزلوا في حمايتكم وفي دياركم واموالكم ، ثم بقوله : « وواسيتم » والمواساة : المشاركة في المحنة والشدة ، وهذا من موجز اللفظ وبليغه ودقيقه ، وحقاً كان كذلك الانصار بالنسبة للمهاجرين .

وانظروا فوق ذلك الى صحة الالفاظ واستقامة الاساليب وبلاغتها ، وقوة المنطق ، وصدق الحجة ، والى ترتيب الافكار وتنسيق الحجج ، والى إصابة المحز ، وبلوغ الهدف . ان كل ذلك من خصائص بلاغة هذا النص الشريف ، ومن تأثير الاسلام والقرآن في الادب والادباء .

٣ — وروح النص وجَوُّهُ والتأثرات المختلفة فيه ترشد الى الاسلام والقرآن في بلاغته مما لا داعي الى الكلام فيه .

من أعلام الخطباء والبلغاء في عصر صدر الاسلام

الامام علي بن ابي طالب ـــ حياته

(١)

من أعلام الخطباء في عصر صدر الاسلام ، ومن بيت النبوة ، ودوحة الرسالة ، فهو ابن أبي طالب، وحفيد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وكان عبد المطلب سيد قريش وزعيمها وعلمها المشهور .

أما والده أبو طالب فكان شريفاً عظيماً ، اشتغل بالتجارة في الجاهلية ، ولما مات ابوه ورث عنه السقاية والرفادة ، وهو الذي كفل ابن اخيه محمداً صلوات الله عليه . وشمله بالرعاية والعون والتأييد، حتى توفاه الله الى رحمته.

ووالدة الامام علي هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهي اول هاشمية ولدت هاشمياً ، أسلمت وهاجرت الى المدينة وماتت في حياة الرسول .

والامام علي هو الخليفة الرابع لرسول الله صلوات الله عليه ، وهو ابن عم الرسول ، وزوج ابنتـــه ، ووالد الحسن والحسين ، وإمام الخطباء من المسلمين بعد رسول الله .

(٢)

(ا) ولد ـ رحمه الله ـ بمكة بعد مولد الرسول باثنتين وثلاثين سنة (قبل البعثة بثمان سنوات ، وقبل الهجرة بواحد وعشرين عاماً)[١] .

ونشأ بمكة النشأة العالية ، في كفالة الرسول كأحد اولاده ، فقد كان الرسول صلوات الله عليه متزوجاً خديجة ام المؤمنين، وكانت ذات مال كثير، وربح وفير من التجارة على يدي محمد بن عبد الله ، فلما أُصيبت قريش بالقحط والمجاعة ، قال الرسول لعمه العبــاس : إن اخاك أبا طالب كثير العيال ، والناس فيما ترى من الشدة ، فانطلق بنا فلنخفف من عياله تأخذ أنت واحداً وانا واحد ، وكان لأبي طالب من الذكور اربعة اولاد . وهم طالب وعقيل وجعفر وعلي ، أما طالب فمات قبل أن يسلم كأبيه ، والباقون اسلموا ، وكان إسلام علي وهو صغير في السنة الثامنة من عمره او العاشرة ، ولم يدنس نفسه بشيء من آثام الجاهليين وباطلهم وشركهم ، ومن ثم قيل فيه : « كرم الله وجهه » ، لأنه لم يسجد لصنم قط » .

ولما علم أبوه بإسلامه قال له : أي بني ، أيّ شيء الذي أنت عليه ؟

---

(١) يقول المسعودي في ص ١٩٨ من كتابه « التنبيه والإشراف » : تنوزع في سنه يوم أسلم فقيل : كانت سنه خمسة عشر عاماً ، وقيل ثلاثه عشر ، وقيل : احد عشر ، وقيل : تسع وقيل : ثمان ، وقيل : سبع ، وقيل : ست ، وقيل : خمس .

قال : « يا أبت آمنت بالله ورسوله ، وصدقت ما جاء به واتبعته » ، فقال له : « إنه لم يَدْعُكَ إلا الى الخير فالتزمه » .

(ب) وكان علي ذا منزلة رفيعة عند الرسول والصحابة والمسلمين ، وعلى جانب كبير من التقوى ، وكان اوفرهم نصيباً وأكرمهم حظاً من الرسول ، وإليه كانت الفتوى في حياة الرسول وبعد حياته ، حتى ضرب به المثل بعد وفاة رسول الله ، فقيل : « قضية ولا أبا حسن لها » قال عبد الله بن عباس: « قسم علم الناس على خمسة اجزاء ، فكان لعلي منها اربعة ، ولسائر الناس جزء شاركهم فيه ، فكان اعلمهم به » وقال فيه عبد الله بن مسعود : « كان علي أفرض اهل المدينـــة وأقضاهم » ، يريد اعلمهم بعلم الميراث والفصل في القضايا بين الناس ، وكان يسأل عن الأمور المشكلة فيجيب بها على البديهة ، ويحل مشكلات المسلمين الدينية والاجتماعية .

وكان بطلا مقداماً ، وفارساً شجاعاً ، علماً من اعلام الاسلام ، كما كان خطيباً مصقعاً ، وبليغاً منطيقاً ، ومستشاراً مؤتمناً عند ابي بكر وعمر .

(ج) وجهاد علي في نشر الدعوة في حياة الرسول ذائع مشهور ، وحسبه فخراً موقفه الخالد ليلة الهجرة ، إذ نام في مضجع رسول الله صلوات الله عليه ، ليفدي الرسول ، ويضمن نجاح هجرته ، مع ما كان يعلمه مما قد يصيبه من قتل او تعذيب .

وهاجر علي الى المدينة ، وأقام فيها مع رسول الله ، يستمد علمه من علم صاحب النبوة ، وكان من كتاب الوحي ، واشترك في المشاهد والغزوات كلها ما عدا غزوة تبوك .

(د) وتوفي رسول الله وولي الخلافة ابو بكر بعده ، وكان علي كريم النفس، رائع التضحية والإيثار، إذ وقف وراء خليفة رسول الله يشد أزره ،

ويسند ظهره، ويشير عليه في المشكلات . ولما تولى عمر الخلافة بعد ابي بكر كان عليّ له ظهيراً ومعيناً، يشير عليه بالصواب والسداد عند تفاقم الأمور، والحاجة الى الناصح الأمين .. ثم قام بعد عمر عثمان بالخلافة فبايعه علي وظل يعاونه حتى تفاقمت الأمور ، وقامت الثورة على عثمان ، ومات فيها قتيلا ، ويروى أن عثمان كتب إليه وهو محاصر في داره : « بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وطمع فيّ من لا يدافع عن نفسه ، ولم يغلبك مثل مغلب ، فأقبل الى صديقا كنت او عدواً » .

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل

وإلا فأدركني ولمـــا أمـــزق

فبعث إليه بابنيه الحسن والحسين، يدافعان عنه ، وأبليا بلاء حسناً في هذا المضمار ، ولكن إرادة الله الغالبة أرادت أن يقتل عثمان ، وأن تصل الأمور الى ما وصلت إليه من اضطراب وغليان .

(٣)

وبويع علي بالخلافة بعد عثمان على كره منه عام ٣٥ هـ وسارت الأمور على النحو الذي سارت عليه .

خرجت عليه عائشة وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، واستمرت الحرب بينه وبين معاوية سجالاً ، وكانت موقعة صفين ، فموقعة الجمل ، ثم كان أمر التحكيم الذي قبله عليٌّ على كره منه ، وخدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري فيه ، وخرج الخوارج ، وتآمروا على الإمام وقتلوه بيد

عبد الرحمن بن ملجم المرادي في الكوفة في السابع عشر من رمضان عام ٤٠ هـ، ودفن بها وعمره ثلاثة وستون عاماً .

وتولى بعده ابنه الحسن خلافة المسلمين ، ثم تنازل عنها لمعاوية عام ٤١ هـ .

نهج البلاغة للامام علي

كتاب جليل ، وأثر ادبي خالد ، بعد كلام الله وكلام رسوله ، جمعه الشريف الرضي (المتوفي عام ٤٠٦ هـ) ، مشتملاً على كل ما نسب للامام من خطب ، ووصايا ، ونصائح ، وحكم ، وأمثال ، ومواعظ ، ومحاورات ، ووسائل عهود ، وغيرها . وقيل ان الذي تولى جمعه هو الشريف المرتضى (المتوفي عام ٤٣٦ هـ) .

وتختلف الآراء في صحة نسبة الكتاب للامام ، ففريق يرون أن الكتاب بجملته وتفصيله لعلي ، ويرى آخرون أنه منحول مفترى عليه للأدلة الآتية :

١ ــ ما في الكتاب من أفكار عميقة ، واصطلاحات كلامية لم توجد في عصره .

٢ ــ ما في بعض رسائل الكتاب من طول كثير ، كعهد علي الى الأشتر النخعي ، وذلك مما يدع مجالاً للشك في صحة نسبتها الى الإمام علي .

٣ ــ خلو الكتب المؤلفة قبل الشريف الرضي من كثير مما في نهج البلاغة.

٤ ــ ما في الكتاب من اقوال شديدة اللهجة في حق بعض الصحابة كما في الخطبة الشقشقية التي تؤيد كثير من الباحثين نسبتها للامام ، وينكر آخرون أن تكون من كلامه .

ونحن لا نقول : إن الكتاب كله منحول على الإمام ، بل نذهب الى انه قد يكون فيه بعض المنحول عليه الذي لا تصح نسبته إليه .

هذا وقد تتلمذ على الكتاب، وتثقف بثقافته الكثيرون من عاشقي الأدب ودارسيه في القـــديم والحديث ، ولا يزال حتى اليوم من اهم كتب الأدب والثقافة الدينية والعربية .

والكتاب عالي الأسلوب ، فخم العبارة ، مصقول البيان ، لطيف الروح مشرقها ، ينحدر الى النفس بسهولة ، ويدخل الى القلب بغير استئذان .

وموضوعات الكتاب كما يقول الشريف الرضي ثلاثة :

أولها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ .

ويمتاز مع ذلك بطوله وضخامته ، وبأهمية ما فيه من آراء في الأخلاق والسياسة والدين والاجتماع ، وبأنه ثروة فكرية وأدبية ضخمة .

« بلاغة علي وخصائص خطابته »

(ا) كان علي في الذروة من البلاغة والبيان والفصاحة ، وكان اخطب الخطباء بعد رسول الله ، ولذلك أسباب :

١ – أسرته وبيئته ومكانتهما في البلاغة .

٢ – تأثره ببلاغة القرآن والحديث النبوي .

٣ – نشأته وطبعه من صغره على البيان واللسن والفصاحة .

٤ – كانت حياته كلها حياة كفاح ونضال وجهـــاد ، وهذا من اهم ما يبعث على الخطابة ، ويدعو إليها .

٥ – قوة عارضته ، وحدة ذكائه وعبقريته ، وجليل شخصيته ، وحبه للصراحة والرأي الواضح ، وكل ذلك مما يبعث على الخطابة ، ويعين عليها .

(ب) وتمتاز خطابة الإمام علي بخصائص كثيرة منها :

١ – تمثيلها لحياته وشخصيته وآرائه في الحياة .

٢ – دقة معانيه وجلالها وتناسقها وما يسودها من وحـــدة والتئام ، وعظمة الروح التي استنبطت هذه المعاني ، مع علو الأفق ، مما لا يكون إلا لمثل علي كرم الله وجهه .

٣ – بلاغة اسلوبه وأحكامه وإشراقه واستمداده من اساليب الذكر الحكيم والبلاغة النبوية الشريفة .

٤ – جزالة ألفاظه إذا استثنينا منها هذه الألفاظ الاصطلاحية الكثيرة التي يشتمل عليها الكتاب .

ويقول الرضي عنه : « كان مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه اخذت قوانينها » من اجل هذا كان إذا خطب فهو اخطب العرب بعد رسول الله ، وإذا كتب كان أبلغ النـــاس قولاً ، وأصدقهم وصفاً ، وأسيرهم مثلاً[1] .

---

(١) من اروع صور الخطابة الخطبة الشقشقية المنسوبة للإمام علي (١٣٧ – ١٤٠ الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام – تأليف محمد عبد المنعم خفاجي – القاهرة ١٩٤٩) .

« علي بن أبي طالب والشعر »

ينسب لعلي شعر كثير ، وقد ظهر ديوان مطبوع له منذ أعوام طويلة ، ونسب إليه ابن رشيق في الجزء الأول من كتابه « العمدة في صناعة الشعر ونقده » شعراً .

وأكثر ما ينسب لعلي من الشعر تصح نسبته لغيره ، وهـــذا مما يرجح انتحاله ، وليس بمعقول أن يكف لبيد عن الشعر ، ويخوض فيه مثل الإمام علي ، الى هذا الحد الذي يصوره لنا الديوان المنسوب اليه .

وجل الديوان شعر في الزهد والحكمة والموعظة ، على أنه شعر ضعيف لا يرتقي الى شعر الشعراء الفحول ، وذلك دليل آخر على انتحال هذا الشعر وعدم صحة نسبته للامام علي كرم الله وجهه . ومن هذا الشعر ما روي من رثاء الإمام علي للرسول صلوات الله عليه ، وفي هذه القصيدة يقول :

أمن بعـد تكفيني النبي ودفنـــه
بأثوابـــه آسى على هـــالك ثوى
رزئنـــا رسول الله فينا فلن نرى
بذاك بديلاً ما حيينـــا من الورى
لقـــد غشيتنا ظلمة بعـــد موتـــه
نهاراً ، فقد زادت على ظلمة الدجى

وكنا برؤياه نرى النور والهدى

صباح مساء ، راح فينا او اغتدى

ولما اشتدت معركة الهجاء بين المسلمين والمشركين ، قال بعض الصحابة لعلي رضي الله عنه : اهج عنا القوم الذين قد هجونا ، فقال له علي : إن أذن لي الرسول فعلت ، فقال رجل : يا رسول الله ، إيذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا ، فقال له ﷺ : ليس عنده ذلك ، ثم ندب رسول الله الأنصار ، فقال حسان : أنا لها .

« خطبة للامام علي بعد وفاة ابي بكر »[1]

يرحمك الله أبا بكر ، كنت الف رسول الله وأنسه وثقته وموضع سره ، وكنت اول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم على رسوله ، وأعونهم على الإسلام ، وآمنهم على أصحابه ، أحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأقربهم برسول الله سنناً وهدياً ورحمة وفضلاً ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده ، جزاك الله عن الاسلام وعن رسوله خيراً ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدقت رسول الله حين كذبه الناس فسماك الله في تنزيله صديقاً ، فقال : « والذي جاء بالصدق وصدق به ، واسيته حين تخلوا ، وقمت معه عند المكارة حين عنه قعدوا ، وصحبته في الشدائد أكرم الصُّحبة ثاني اثنين ، وصاحبه في الغار ،

(١) رومن انه لما قبض ابو بكر ارتجت المدينة بالبكاء كيوم وفاة الرسول ، وجاء علي باكياً ، وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة .

والمنزل عليـه السكينة والوقار ، ورفيقة في الهجرة ، وخليفته في دين الله وفي امته احسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن اصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالامر حين فشلوا ، ونطقت حين سكتوا ، مضيت بنور إذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت اصوبهم منطقاً ، واطولهم صمتاً ، وابلغهم قولاً ، واكثرهم رأياً ، واشجعهم نفساً ، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عملا ، كنت للدين يعسوباً : أولاً حين نفر منه الناس ؛ وآخراً حين أقبلوا ، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً إذا صاروا عليك عيالاً فحملت اثقـــال ما ضعفوا ، ورعيت ما اهملوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمرت إذ خنعوا ، وعلوت إذ هلعوا ، وصبرت إذا جزعوا ، وأدركت اوتار ما طلبوا ، ورجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك ما لم يحتسبوا ، وكنت كما قال رسول الله أمنّ النـــاس عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلا في اعين الناس ، كبيراً في انفسهم ، لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لأحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هوادة ، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، اقرب الناس إليك أطوعهم لله ، شأنك الحق والصدق والرفق ، قولك حكم ، وأمرك حزم ، ورأيك علم وعزم ، فأبلغت وقـد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ، واعتدل بك الدين ، وقوي الإيمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، وأتعبت من بعدك اتعاباً شديداً ، وفزت بالجد فوزاً مبيناً، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك في السماء ، وهدت مصيبتك الأنام ، فإنا لله وإنا اليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له امره ، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبداً، فألحقك الله بنبيه، ولا حرمنا أجرك ، ولا اضلنا بعدك .

« خطبة للامام علي »

تمهيـــد :

علي بن أبي طالب من اكبر دعاة الاسلام وقادته ، ومن اعلام البلغـاء والخطباء في عصر صدر الاسلام ، نشأ في بيت الرسالة، وكان فرعاً في دوحة النبوة ، تغذى بالبيان والحكمة ، وتفقه الكتاب والسنة . . وتفوق في العلم والمعرفة ، وفي الزهد والفصاحة ، وفي الحكمة والخطابة ؛ ثمرة لنشأته الرفيعة ، وبيئته العجيبة، وحياته الخصبة ، وتجاربه الجليلة في الحياة ، فكان حكيماً تتفجر الحكمة من بيانه ، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب ، وكاتباً بليغاً مترسلا بعيد غور الحجة ، ومتكلماً يجول ببيانه في كل مجال ، ويصول به في كل نضال ، ويناضل به عن الدين والدعوة أروع نضال .

وفي الخطبة التي نذكرها لك الآن ، والتي كان موضوعها الحث على كثرة حمد الله وذكر الموت ، صورة من البيان العلوي ، والوعظ الرباني ، وفيهـــا حكم بالغة ، وآيات ناطقة .

نص الخطبة :

أوصيكم ــ ايها الناس ــ بتقوى الله وكثرة حمده ، على آلائه إليكم ، ونعمائه عليكم ، وبلائه[1] لديكم ، فكم خصكم بنعمه ، وتداركم برحمته ، أعورتم له فستركم[2] وتعرضتم لأخذه فأمهلكم[3] وأوصيكم بذكر

---

(١) البلاء هنا : الاحسان ، وفبلوكم بالشر والخير .
(٢) أصل أعور : ظهر والمراد انكشاف المخبآت وما يراد ستره .
(٣) تعرضتم لاخذ الله بالعقاب وذلك بما اقترفتم من السيئات .

الموت وإقلال الغفلة عنه ، وكيف غفلتكم عمن ليس يغفلكم[1] وطمعكم فيمن ليس بمهلكم[2] ، فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم ، حملوا الى قبورهم غير راكبين ، وأنزلوا فيهـــا غير نازلين . فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً ، وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً؛ اوحشوا ما كانوا يوطنون[3] وأوطنوا ما كانوا يوحشون ، واشتغلوا بما فارقوا ، وأضاعوا ما إليه انتقلوا[4] لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً ، ولا في حسن يستطيعون ازدياداً[5] أنسوا بالدنيا فغرتهم، ووثقوا بها فصرعتهم ، فسابقوا رحمكم الله الى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها ، والتي رغبتم فيها ورغبتم إليها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته ، فإن غداً من اليوم قريب . ما اسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيام في الشهر وأسرع الشهور في السنة وأسرع السنين في العمر .

فحواها ومنهجها :

١ — بدأ الإمام رضي الله عنه بتقوى الله التي هي اسم جامع لكل ما يتخذ وقاية من سخط الله وعقابه وهو الحرص على الطاعة وتجنب المعصية، وضمّ الى التقوى كثرة حمد الله على نعمه المترادفة ، ومن أجل* ذلك ستره على عباده إذا عصوا ؛ وعدم معاجلته إياهم بالعقوبة .

---

(١) غفل عنه وأغفله تركه وسها عنه والموت لا يترك احداً .

(٢) هم يطمعون أن يجاملهم الموت . فشبههم بمن يطمعون في شخص لا يرحم ولا يتنازل عن موعده في اقتضاء حقه .

(٣) أوحشوا ما كانوا يتخذونه وطناً وذلك أنهم هجروه فصار وحشاً لا انس به .

(٤) اشتغلوا بالدنيا التي كانت لهم معبراً ففارقوها وأضاعوا الآخرة التي هي دار للقرار .

(٥) من مات فقد انقطع عمله فلا يستطيع أن يتحول عن قبيح كان عليه ، ولا ان يزداد من خير قصر فيه .

٢ — ثم اوصاهم بذكر الموت بكثرة ، ودلهم على ما ييسر لهم ذلك في انه لا يتركهم إن يتركوه ولا يمهلهم إن طمعوا في ذلك منه . وحقق لهم ذلك بكثرة ما عاينوا من الموتى الذين حملوهم غير راكبين وكانوا بينهم احياء فكأنهم لم يكونوا في الدنيا ولم يبارحوا الآخرة ، ويعين ما فاتهم من فرص في الدنيا ليحذر المؤمنين من تضييعها .

٣ — ثم رتب على ذلك الدعوة الى المسابقة الى منازل الأبرار وفي دار القرار وذكر بالنعم فدعا الى استتامها بالصبر على الطاعة والبعد عن المعصية .

٤ — وأخيراً قطع الكلام ببيان كيف تزول الدنيا بزوال الساعات التي بها الأيام. وبالأيام وانقضائها تنقضي الشهور، وبانقضاء الشهور تنقضي السنوات وبذلك تفنى الأعمار ، فمن لم يدرك نفسه اخذ وهو لا يشعر .

موضوع الخطبة :

نلحظ في معاني الخطبة ما فيها من ترتيب الفكرة وسلوك مسلك التعليل الذي بدأ يظهر في آداب الإسلام .

انظر الى قوله : « **وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم ، وطمعكم فيمن ليس يمهلكم** » ؛ وفي بعض معانيها ما يشبه أخيلة الشعر ، كهاتين الفقرتين ، وكاللتين بعدهما .

وكان الإمام علي كثير الرواية والحفظ للاشعار ، وقد استفاد منها مع ما استفاد من الإسلام وآدابه ، وما اقوى تأثير الفقرة الأخيرة ودلالتها على وشك انقضاء الأعمار «وما اسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة ، وأسرع السنين في العمر » . وهذه وأمثالها هي التي خَرَّجَ الإمام الحسن البصري سيد التابعين عالماً ربانياً وواعظاً لا يشق له غبار .

والخطبة تتضمن الدعوة الى حمد الله وذكر الموت والاستعداد له ولأهواله، والمسابقة الى اعمال الخير .

أسلوبها :

أما اسلوبها فإنه يفيض بالرقة والعمق في استعمال الألفاظ وتوخي الدقة فيها والمواءمة بين كلمها حتى في الحروف التي تختلف بها الدلالة عنـــد اهل الذوق، فانظر الى كلمة إليكم في قوله : **«على آلائه إليكم»** ، وتصور كيف يكون المعنى لو حذفها او أتى بكلمة غيرها مثل : **«إليكم»** فإنك تجد المعنى خرّ من عليائه ، وما أبدع كلمة **« له »** في قوله **«أعورتم له»** ، وهكذا مما لذلك الإمام من اسرار هي سر فصاحة قوله، وهو ما يسميه النقاد (بالنظم).

ويلاحظ فيها الميل الى السجع القصير الفقرات مع الموازنة ، وأن فيهـا شيئاً من الترادف في المعنى كقوله : **« على آلائه إليكم ، ونعمائه عليكم »** مع تناول محسنات اخرى، كالعكس في قوله : **«أوحشوا ما كانوا يوطنون، وأوطنوا ما كانوا يوحشون »** ، وكان ذلك كله قليلاً جداً في عهده إلا في ارفع الكلام والمحسن البديعي إذا اتفق مع الطبع السليم والذوق القويم كان غاية في البلاغة ، وفيها قليل من المجازات والكنايات القريبـة المتناول مثل **«صرعتهم، وسابقوا الى منازلكم»**، ومن الاستعارة مثل **«حملوا غير راكبين فانزلوا غير نازلين »** .

وللقرآن الكريم فيها اثر كريم صالح ، وحصافة عقل الإمام وقوة روحه وسعة تمكنه ظاهرة فيها ، وبذلك احسن التصرف في السبك والصـــياغة والمعنى .

عصرٌ ذهبيٌّ للخطابة

(١)

ومن هذه النماذج الرفيعة من الخطب في عصر صدر الإسلام، نرى أن ازهى عصور الخطابة العربية كان هو هذا العصر ، الذي شاهد مشرق النبوة ، ومولد الدين ، وظهور الإسلام ، ونزول القرآن ، وانتصار الدعوة . ذلك أن حياة الجهاد التي شملت الأمة العربية طول هذه المدة ، كانت فاتحتها دعوة النبي الى الدين الجديد ، فاضطر العرب الى الخصـــام والمحاجة ، للذود عن عقائدهم الموروثة ، وكان النبي وأصحابه يؤيدون هذا الدين بلسانهم وخطبهم، ولما قضى النبي كثرت الأحداث والفتن، التي يطول فيها الجدل ، ويحتدم فيها النزاع ، وأول ما ظهر من ذلك اختلاف المهاجرين والانصار فيمن يتولى أمر الأمة بعد النبي ، ثم فتنة المرتدين ، ثم تجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله ، ثم نكبة المسلمين بقتل عثمان ، وانقسام جماعة المسلمين ايام علي ، احزاباً وشيعاً يحارب بعضها بعضاً .

وكان للخطابة في تلك الأحوال شأن اي شأن ، فهي أداة المتجادلين ،

يوضح كل منهم بها مذهبه ، ويدلي بحجته ، ذلك الى أن الدين جعلها شعار المجتمعات الرسمية : كالجمعة والعيدين ، وموسم الحج كما كان عليها اعتماد القوم عند التقاء الصفوف ، وقدوم الوفود .

(٢)

وأهم انواع الخطب في صدر الإسلام هي :

١ – **الخطب الدينية** : وهي التي قيلت في الدعوة الى الاسلام ، او في شرح العقـــائد ، وتبيين الأحكام ، او في الوعظ والإرشاد ، كخطب الجمع والعيدين ، وموسم الحج ، ومن هذا النوع اكثر خطب النبي ﷺ .

٢ – **الخطب السياسية** : وهي التي قيلت في شرح المسائل السياسية : كاستحقاق الخلافة ، وولاية العهد ، وبيان المناهج السياسية للخلفاء والولاة كخطب أبي بكر وعمر وعلي .

٣ – **الخطب العسكرية** : وهي التي يقولها القواد وأمراء الجيوش عند الزحف والتقاء الصفوف ، كخطب الامام علي ، وخالد بن الوليد .

(٣)

وتمتاز اساليب الخطابة في العصر الاسلامي بأمور :

١ – بدؤها بحمد الله تعالى ، والصلاة على النبي ﷺ .

٢ – ختمها بما يناسب المقام من الدعاء للمخاطبين ، او السلام عليهم ، او بتمجيد الله والثناء عليه . ونحو ذلك مما يشعر الناس بانتهاء الخطبة .

٣ – حرص الخطيب على انتقاء الألفـاظ الجزلة ، البعيدة عن خشونة البداوة ، اقتداء بألفاظ القرآن الكريم ، إذ هو المثل الأعلى للبلاغة العربية .

٤ – اقتباس ما يناسب موضوع الخطبـــة من آيات القرآن الكريم ، والمبالغة في ذلك احياناً ، حتى تكون الخطبة كلها آيات من القرآن .

٥ – قلة الأسجاع ، إلا ما جاء منها عفواً بلا تكلف ، والاقتصاد في إيراد الحكم .

٦ – تفاوت الخطب بين الايجاز والاطناب ، على حسب المقام .

٧ – قوة الأسلوب ، وجماله ، وشدة تأثيره، ووصوله الى قرارة النفس، وامتلاكه زمام الوجدان والشعور ، مما رقق القلوب القاسية ، وهذب الطباع النافرة .

وقصارى القول أن الخطابة وصلت في هذا العصر الى أرقى منزلة، بتأثير القرآن الكريم والحديث النبوي . . ولم تشهد العربية عصراً حافلاً بكثرة الخطباء ووفرة الخطب ، مثل هذا العصر .

وأعظم خطباء هذا العصر على الاطلاق : هو الرسول ﷺ ، وخلفـاؤه الراشدون ، وقواد الجيوش الاسلامية التي كانت تذهب الى كل مكان ، وتسير في كل فج .

الكتابة في صدر الإسلام

الكتابة في العصر الجاهلي :

انتقلت الكتابة من الأنبار والحيرة على يد بشر بن عبد الملك وهو أخو أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل[1] . فإن بشراً خرج الى مكة وتزوج بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان . فعلم جماعة من أهل مكة الكتابة فكثر من يكتب بها من قريش .

قال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يفتخر على قريش بذلك :

فلا تجحدوا نعماء بشر عليكمو
فقد كان ميمون النقيبة أزهرا

(١) يرد ذكر أكيدر في السيرة النبوية في غزوات الرسول صلوات الله عليه وسراياه ، كغزوة تبوك، وفي السنة الخامسة للهجرة غزا الرسول صلى الله عليه وسلم دومة الجندل وهي أولى غزواته للروم ، وبين دومة الجندل ودمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة ، وكان صاحبها أكيدر يدين بالنصرانية ، ويخضع لنفوذ هرقل ملك الروم . وفي السنة التاسعة غزا خالد دومة الجندل وفتحها بعد غزوة تبوك ، وأخذ أكيدر أسيراً .

أتاكم بخط « الجزم » حتى حفظتموا

من المال ما قد كان شتى مبعثرا

فأجريتم الأقلام عوداً وبـــدأة

وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا

وعرف خط أهل الحجاز « بالحجازي » ، ولما نشأت الكوفة أدخل عليه كتابها من الزخرف والتحسين فسمي « الخط الكوفي » .

والكتابة على أي حال اكد أسباب الحضارة ، وأوثق وسائل العمران ، وكلما ازدادت شؤون الحضارة ، واتسعت مذاهب الملك ، وتعددت مناحي التفكير ومناهج الثقافة ، ازدادت الحاجة إليها وازداد الكتاب إقبالاً عليها وافتناناً في مناحيها وتجويداً في لغتهـــا ومعانيها وتنويعها في موضوعاتها وأغراضها .

الكتابة في عصر الرسول :

ولما بعث الرسول ﷺ كان بمكة نفر ممن يحسنون الكتابة ويبلغون نحو السبعة عشر ، ثم لما هاجر الى المدينة ووقعت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة الشريفة وأسر المسلمون نحو سبعين رجلاً من قريش وغيرهم ، جعل الرسول ﷺ فداء كل من يعجز عن دفع المال تعليم الكتابة لعشرة من فتيان المدينة ، فلا يطلق سراحه إلا بعد تعليمهم ، فكثرت الكتابة في المدينة ، وأخذت تنتشر في كل ناحية دخلها الإسلام في حياة الرسول وبعده .

وبلغ عدد كتابه عليه السلام ثلاثة وأربعين كاتباً ، منهم زيد بن ثابت ، ومعاوية ، واختلف في كونه ﷺ يقرأ ويكتب ، فمن قال بذلك استدل

بقوله تعالى : « **رسول من الله يتلو** » صحفاً مطهرة ، وبحديث البخاري انه عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية اخـذ الكتاب ليكتب فكتب . ومن قال انه امي استدل بقوله تعالى : « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك** » ؛ وبحديث البخاري : نحن امـــة امية لا نكتب ولا نحسب .. وليس ما يمنع من أن الرسول صلوات الله عليه وسلم كان امياً قبل بعثته لتتم له المعجزة ، ثم بعد ان تحققت اميته وتقررت بذلك معجزته ، تعلم الكتابة وعرفها .

وكان علي كرم الله وجهه ، وعائشة وصفية من امهات المؤمنين يحسنون الكتابة .

ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد اناف الكتابة على خمسمائة بين رجل وامرأة وفتى .

وفي العهد النبوي كتب القرآن الكريم . ورسائل النبي ﷺ الى الاقيال والامراء والملوك ، وكتبت عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين .

وكان كتابه ﷺ نوعين : كتاب وحي ، وكتاب اعمال .. ومن بين كتاب الاعمال : الزبير بن العوام، وجهل بن الصلت، وكانا يكتبان الصدقات ، والمغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير ، وكانا يكتبان التـداين والمعاملات ، وحذيفة بن اليمان ، وكان يكتب خرص النخل .

الكتابة في عهد الخلفاء الراشدين :

ولما توفي رسول الله صلوات الله عليـــه واتسعت الفتوحات الإسلامية كثرت الحاجة الى الكتابة ، وقام الكتاب بأعمال الدعوة والدولة ، فكتبوا القرآن ، واستخدمهم الخلفاء في كتابة رسائلهم الى العمال والولاة والقواد ،

وفي وصاياهم الى قضاتهم ، ورسائلهم الى اهل الامصار ، وفي كتابة وثائق الصلح ونصائح الخليفة وتوجيهاته في الحرب والسلم .

وكان الخليفة او الوالي يكتب بيده او يملي على بعض الكتاب ، ولم تكن قد صارت بعد صناعة فنية كما حدث في عهد بني امية وبني العباس .

دواعي الكتابة وأغراضها :

وكانت الحاجة الى الكتابة في عصر صدر الإسلام كثيرة :

فقد كان المسلمون في حاجة إليها لتدوين القرآن ولكتابة رسائل الدعوة الى الإسلام .

كما كانوا في حاجة إليها في شؤون الملك والسياسة . والحروب والسلم وفي كتابة العهود والمصالحات والمنشورات والوصايا والنصائح .

ثم دعت الحاجة إليها في تدوين الدواوين وتنظيمها .

فانه لما اتسعت الفتوحات في عهـد عمر وكثرت موارد الدولة ووفرت الغنائم احتاجت الدولة الى إنشاء الدواوين لضبط مواردها ومصارفها وضبط أعطيات المسلمين .

وقد عهـد الخلفاء بالكتابة في الدواوين الى العرب والموالي والمتعربين وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغـة اهل المصر ، ففي العراق وفارس بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية . حتى حذقها من العرب طائفة فحولت بعد ذلك الكتابة في الدواوين الى اللغـة العربية وذلك في عصر بني امية .

مميزات أسلوب الكتابة :

ويمتاز اسلوب الكتابة في هذا العصر بما يأتي :

١ — سهولتها ووضوحها وقصدها الى الغرض وبعدها عن التكلف وخلوها من عبارات التفخيم ، وتأثرها بالقرآن واسلوبه واقتباسها منه .

٢ — ميلها الى الإيجاز ، حتى لقد كتب خالد بن الوليد الى عياض رسالة وهو محاصر بدومة الجندل يقول فيها :

« من خالد الى عياض : اياك اريد » .

٣ — وكانت الرسائل تبدأ باسمك اللهم ، ثم يقول من فلان الى فلان ، ثم يلي ذلك غالباً قولهم : السلام عليكم ، او السلام على من اتبع الهدى ، ثم يثنون بقولهم : « إني احمد الله إليك » ثم يأتي الكاتب غالباً بأما بعد ، ويذكر غرضه الذي يكتب لأجله ، ويختمها بقوله : « السلام عليكم ورحمة الله » .

نماذج للكتابة :

١ — ومن نماذجها ما كتبه رسول ﷺ الى هرقل في السنة السابعة من الهجرة، وقد بعث رسول الله بهذه الرسالة دحية بن خليفة الكلبي، ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد : فاني ادعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله اجرك مرتين . فان توليت فانما عليك اثم الأريسيّينَ [١] ..

ويا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً . ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

---

(١) هم العمال والفلاحون لأنهم تبع لسادتهم .

٢ – وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري وقد ولاه القضاء .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين الى عبد الله ابن قيس ، سلام عليك ، اما بعد : فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا ادلي إليك ، فانه لاينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس[1] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك[2] ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من انكر .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً احل حراماً ، او حرم حلالاً ، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم فيما يتلجلج في صدرك ممـا ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشباه والامثال فقس الامور عند ذلك ، واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحق » .

٣ – وكتب معاوية بن ابي سفيان الى علي بن ابي طالب حين اشتد بينهما الخلاف :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من معاوية بن صخر الى علي بن أبي طالب : أما بعد : فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم اجمعين ، ولكنك أغريت بدم عثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل . وقوي بك الضعيف . وقد أبى اهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت

---

(١) : آس : اي سوِّ بين الناس .

(٢) الحيف : الظلم .

كانت[1] شورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس، والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس اهل الشام ، ولعمري ما حجتك عليهم كحجتك على طلحة والزبير ، لأنهما بايعاك ولم ابايعك . وما حجتك على اهل الشام كحجتك على اهل البصرة ، لأن اهـــل البصرة أطاعوك ولم يطعك اهل الشام ، فأما شرفك في الاسلام ، وقرابتك من رسول الله ﷺ ، وموضعك من قريش ، فلست أدفعه » .

(١) كانت اي الخلافة .

الفصل الخامس

الشعر في عصر صدر الإسلام

بين الجاهلية والاسلام :

كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تساميها منزلة ، ومكانة لا تدانيها مكانة ، فهو ديوان مآثرهم ، وسجل مفاخرهم ، واللسان الناطق بما لهم من فضل وما هم عليه من مجد أثيل وعز شامخ ؛ ما من حرب تقوم بينهم إلا كان هو الذي هاج نارها ، وأوقد سعيرها ، وشب لظاها ، وأشعل لهبها .

ولا تفتح مغاليق الأنفس ، ولا تلين قساوة القلوب ، ولا تنال العطايا والهبات ولا تجزل المنح ، إلا بالقول الساحر ، والشعر البليغ الذى يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغبة ، ويحتال به على ما يبغي من غرض . ولاتعمل مجالس السمر ومحافل العلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيدة .

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم ﷺ كانت قد انحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذبة والخلق القويم الذي تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع . فكان يصف المرأة أقبح وصف . ويهتك الحرمات ، ويخرق الحجب والأستار ، ويثير العصبية ويوقد الحمية ، ويحرض الناس على الاقتتال والتناحر ، ويبعثهم على التقاطع والتدابر والتنافر . فكان بهذا السمت وبهذه الروح من معاول الهدم وأسباب الدمار التي منيت بها الحياة العربية .

ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة ، دعوة العفة في القول ، والعقل

والأدب الذي يليق بالمسلم، فحرم على الناس الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وحذرهم من باطل القول وزوره ، ومن سيء الظن وخداعه وغروره ، ودعا أولياءه وأتباعه الى أن يبتعدوا عن كل رذيلة ، ويمتنعوا من كل موبقة ، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان في ذلك ما يؤذي نفس مسلم .

أمات الإسلام فيهم روح العصبية ، وأخمد في نفوسهم حمية الجاهلية ، وحظر عليهم أن يلموا بما يثير النفس او يذكر بالخصومات او يحرك كامن الأحقاد ومستور الضغائن .

حرم عليهم شرب الخمر ، لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب عليهم حفظ الفروج وغض البصر وكف الأذى وصيانة الحرمات . ومن هنا وجد الشعراء الذين دخلوا في الاسلام وأشربوا روحه ، واهتدوا بهديه ، وجدوا أدباً غير الأدب ، وروحاً غير الروح ، وأسلوباً في الخطاب غير الأساليب التي اعتادوها ، وطرائق غير الطرائق التي ألفوها ، ونحواً من بلاغة الكلام السمح العفيف تندقُّ أعناقهم وتنقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه او يقتربوا من حده .

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت ، وأن سبيلهم لما كانوا يتناولون من المعاني والصور قد قطعت ، وأن ما كانوا يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف او تحرج ، قد حظر عليهم الاسلام أن يلموا منـه إلا بما عف لفظه وشرف معناه .

من أجل ذلك تحولوا عن معانيهم التي أجادوها وجوّدوها وأبدعوا فيها ، الى المعاني التي يقرها الدين الجديد ويرتضيها ، بل ان من شعرائهم من امتنع عن قول الشعر في الاسلام ، لأن الله أبدله به خيراً منه . فإن لبيداً لم يؤثر عنه في الاسلام على ما يُروى إلا قوله :

الحمد لله الذي لم يأتني أجلي
حتى اكتسبت من الاسلام سربالا

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر الى أن وافاه أجله ، وقد أرسل إليه عمر يسأله : ماذا أحدثت من الشعر في الاسلام ؟ فقال : أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران .

والواقع ان تحول الشعر عن روحه ومشربه في الجاهلية الى روح جديدة، وحياة جديدة ، ومعان جديدة ، ربما ضاقت بها شياطين الشعر ، وتخلفت فيها أخيلة الشعراء . هذا التحول قد عاد الى الشعر بشيء من الضيق وانقباض الأفق ، وجعل شعراء الاسلام يجفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية او تنفر منه التعاليم الاسلامية ، وفرق بين شاعر ينتهب كل معنى يعن له ، ويقتنص منه كل فكرة تتهيأ أمامه في أي موضوع وفي أية ناحية ، وبين شاعر يستولي عليه التحرج من كل ما يخالف دينه ، ولا يلتئم مع عقيدته .

فهذا الحطيئة لم يرقق الاسلام له طبعاً ، ولم يهذب له نفساً ، ولم يغير له من سمت ، ولم يعدل له من سلوك ، فبقي شعره على ما كان عليه جاهلي النزعة ، زاخراً بكل ما يحمله الشعر من معنى خبيث او هجاء مقذع ، حتى لقد حبسه عمر بن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هدده بقطع لسانه ، وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض المسلمين .

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الاسلام بدمه ولحمه ، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية ، ولم نر له بعد ذلك شعراً قوياً إلا في قوله في منافحة أعداء الاسلام ومكافحة خصوم الرسول ﷺ ، وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه في الجاهلية من القوة الى الضعف .

موقف الاسلام من الشعر :

على أن الاسلام لم يهجن من الشعر إلا لما يحمله من المعاني التي لا تتفق وجلاله، ولا تناسب وقاره وكاله، ولم يغضّ من الشعراء إلا لما يبدو منهم من سمات وخلائق لا يرضاها الدين ، ولا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة **«والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر انهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون»** .

أما ما عدا ذلك فقد كان النبي ﷺ ينصت للشعر ويستمع الى الشعراء ويقول : « ان من الشعر لحكمة » . وكان يأمر حساناً أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه .

وقد وفد على رسول الله ﷺ وفد بني تميم — بعد فتح مكة — ودخلوا المسجد وقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم ، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة ، فأمر رسول الله ﷺ قيس ابن ثابت ، فرد عليه ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحنُ الكرام فلا حيٌّ يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الرُّبُـعُ
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع[1]

فلما فرغ الزبرقان بن بدر ، أمر رسول الله (ص) حساناً بالرد عليه فارتجل حسان قصيدته :

إن الذوائب من فهر واخوتهم
قد بينـــوا سنة للناس تتبع

(١) القزع : السحاب .

يرضى بهـــا كل من كانت سريرته
تقوى الاله وبالامر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

فلما فرغ حسان من قصيدته ، قال الاقرع بن حابس أحد رجال الوفد :

« والله إن هذا الرجل – يعني محمداً – لمؤتى له[1] ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا .. ثم أسلموا » .

فنحن نرى أن الشعر حين اخلص في وجهته ، وسلم مما كان يدنسه من هتك الاعراض ، وكشف الاستار .. كان من أسلحة الدعوة الجديدة ، والألسنة المجاهدة المكافحة في سبيل تثبيت دعائمها ، واستقرار قوائمها ، ومن هنا نستطيع ان ندرك رسالة الشعر في هذه الفترة التي صلحت فيها الأخلاق ، وتطهرت القلوب ، واستنارت الأفئدة ، وأظل الناس عهد وادع ، يجمله حسن الأدب ، وجمال الخلق ، وعفة اللسان ، وسماحة المقال .

كانت رسالة الشعر إذا ذاك رسالة سمحـة لا تعرف الفحش ، ولا تحب الجهر بالسوء ، ولا تألف الخوض فيما حرم الله . فهي رسالة مستمدة من روح الاسلام وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة ، ودعوته الحقة الى معاملة الناس أكرم معاملة .

أما من بقي على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد، فقد

(١) أي مسهل له في أمره .

نعى عليه الاسلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب ، لأن لسانه ظل سادراً في غيه ممعناً في كفره لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجاً من دين رب العالمين وشريعة أحكم الحاكمين .

ولقد أرسل النبي ﷺ محمد بن سلمة ورهطاً من الأنصار ، فقتلوا كعب ابن الأشرف من شعراء المدينة اليهود لأنه شبب بنساء المسلمين .

وهذا ضابيء بن الحارث البرجمي هجا بعض بني جدول بن نهشل فأفحش في هجائهم ، حتى رمى أسهم بالكلب فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه وقال : لو أن رسول الله (ص) حي لأحسبنه نزل فيك قرآن وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك .

ولقد حبس عمر النجاشي الشاعر الذي هجا بني العجلان رهط ابن مقبل بقوله :

وما سمي العجلان إلا بقولهم
خذ القَعْبَ واحلب أيها العبد واعجل

وكذلك حبس الحطيئة حين أفحش في هجو الزبرقان بن بدر وهدده بقطع لسانه لولا أنه فزع إليه ، واستلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل ليس لديهم ماء ولا شجر .

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الألسنة ، ووجه رسالة الشعر الى أسمى الأهداف وأنبل الغايات .

أغراض الشعر في صدر الاسلام :

هجر الشعراء الأغراض التي تتنافى والدين وتعاليم الإسلام : كالغزل

الفاحش ، والفخر الكاذب ، والهجاء المقذع ؛ ومن استمر على الهجاء كالحطيئة حبس وزجر من الخلفاء الراشدين ؛ وموقف عمر من الحطيئة معروف . .

وكذلك بطل الكلام في الخمر ووصفها ، والميسر وفتيانه ، والجزور التي ينحرونها ، وفي تملق الناس بالمدح ، وفي صيد الوحش وطرده .. مما كان يعده المسلم المتأثر بالعقيدة الإسلامية عبثاً ولهواً .

وكان كثيرٌ من هـذه الأغراض شديد الصلة بحياتهم في الجاهلية كالخمر والميسر ، وحياة البطولة والصراع ، والأخذ بالثأر ، والرغبة في الانتقام ، والتشبيب والاستهتار ، والفجور في الحب . ومن أجل ذلك كان فيها أجود أشعارهم ، وأملؤها بالقوة والروعة والعاطفة . وهذا يفسر لك بعض الحق فيما يقال من أن الشعر ضعف في صدر الإسلام .

واقتصروا في نظم الشعر على هذه الاغراض الآتية :

١ – الدعوة الى الإسلام ومبادئه ومناضلة خصومه ، وكان من أشهر الذائدين عن الدعوة ورسولها الكريم : حسان (٦٠ ق هـ – ٥٤ هـ) ، وكعب بن مالك (٢٧ ق هـ – ٥٠ هـ) ، وعبد الله بن رواحة (٩ هـ) ، وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول بشعرهم : ابن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وأبو سفيان ، وهبيرة بن أبي وهب ، (٢٧ ق هـ – ٥٠ هـ) وأبو عزة الجمحي .

٢ – هجاء أعداء الدعوة في عصر النبوة وهجاء أصحاب الديانات الزائفة بعد عصر النبوة .

٣ – رثاء من استشهدوا في غزوات الرسول في الفتوحات الإسلامية الكثيرة ، ومن قتل ظلماً من خلفائه وكبار أصحابه .

٤ – الفخر والتباهي بالانتصـار على جيوش الفرس والروم ، والتمدح

بشجاعة المسلمين وأبطالهم ، ووصف المعاقل والحصون وآلات القتال التي لم يكونوا عرفوها وانواع الحيوان الذي لم يشاهدوه ، ومنه الفيلة التي حارب الفرس عليها العرب ، ووصف جبال الثلج والانهار العظام وسفائن البحر ، وسوى ذلك ممـا ملئت به كتب المغازي والفتوح ، وتكثر في هذا النوع الاراجيز .

٥ – الحكمة ، وقد كثرت في الشعر في هذا العصر بتأثير ثقافة القرآن والدين والتجارب الكثيرة التي افادوها في الحيـاة ، يقول حسان او حفيده سعيد :

وان امرأ يمسي ويصبح سالماً
من الناس إلا مـا جنى لسعيد

ويقول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

ويقول كعب بن زهير :

من دعا الناس الى ذمه   ذموه بالحـق وبالباطل

٦ – المدح ، واشهر شعرائه حسان والنابغة الجعدي وكعب بن زهير والحطيئة ، وفي هذا الفن يبدو اثر الاسلام في معانيه والفاظه .

٧ – كما نظموا في الوعظ والتزهيد في الدنيا والدعوة الى تقوى الله ، متأثرين في ذلك بالاسلام .

معاني الشعر وأساليبه وألفاظه :

(ا) وقد بدأت معاني الشعر في هذا العصر تتأثر تأثراً واضحاً بالاسلام والقرآن الكريم واخذ يغلب عليها :

١ – العمق والدقة والفهم والاستقصاء وترتيب المعاني والافكار .

٢ – ظهور المعاني الاسلامية ، والعاطفة الدينية في الشعر ، وغلبتها عليه ، وتوليدها من العقائد الاسلامية .

(ب) كما بدأ الشعراء يتأثرون بالقرآن الكريم وبحديث رسول الله تأثراً ظاهراً في الاسلوب والاداء والألفاظ مما احدث تغيراً واضحاً في اسلوب الشعر في هذا العصر .

١ – فقد اخذوا يهجرون الحوشي والغريب والمبتذل ، وتردد في شعرهم كثير من الالفاظ الاسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والاسلام والجنة والنار إلخ ..

٢ – واخذوا يعنون بجمال السبك وعذوبة الكلام وانتقاء الالفاظ .

٣ – كثر في شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم كما سبق ، واستعمال الفاظه ، والتأثر بأساليبه وتشبيهاته .

ولقد عرضنا من قبل بعض الامثلة التي توضح اثر القرآن في الشعر روحاً واسلوباً ، ومعظم الشعر الاسلامي يتجلى فيه هـذا التأثر بالاسلام في معانيه واغراضه واساليبه والفاظه . فما نزال نستمع الى حسان غير ما سبق ، وهو يقول في أبي بكر :

والثانيَ اثنين في الغار المنيف وقد   طاف العدوّ به إذْ صعّد الجبلا

ويقول :

شهدت بإذن الله أن محمـــداً
رسول الذي فوق السموات من علُ

وأن الذي عادى اليهود ابنَ مريم
رسولٌ أتى من عند ذي العرش مرسلُ

وان أخا الاحقاف إذ يعزلونه
يقـــوم بدين الله فيهم فيعدلُ

ويقول :

فما المـــال والاخلاق إلا معارة
فما اسْطعْتَ من معروفها فتزود

متى ما تقد بالباطل الحق يَأبَهُ
وان قدت بالحق الرواسي تَنْقَدِ

ويقول في استشهاد حمزة يوم احد :

فإنَّ جنـــان الخلد منزلُه بها
وامر الذي يقضي الامور سريع

وقتلاكمو في النار افضلُ رزقهم
حميم معـــا في جوفها وضريع

وقد رأينا تأثره بالاسلوب والالفاظ من قبل في قوله :

عزيز عليه ان يحيدوا عن الهدى
حريص على ان يستقيموا ويهتدوا

وقوله :

اتهجـــوه ولست له بكفء ؟
فشركما لخـــيركما الفـــداء

كما رأينا تأثر معن بن اوس في قصيدته التي يقول فيها :

فما زلت في ليني له وتعطّفي
عليـــه كما تحنو على الولد الام

وخفض له مني الجناح تألفاً
لتدنيـــه مني القرابة والرحم

شعراء المدر والوبر

والاقدمون يقسمون الشعراء المخضرمين الى طائفتين متميزتين :

١ – شعراء الوبر من أعراب نجد واليمامة وبواديها .

٢ – وشعراء المدر وهم اهل القرى ، كالمدينة ومكة والطائف ، وقرى عبد القيس في البحرين والحيرة بسواد العراق .

ويرون أن شعراء اهل نجد واليمامة والبوادي افحل من شعراء اهل القرى وأجزل لفظاً وأضخم أداء وأوسع مذهباً في تنويع اساليب الكلام . . وإن كان شعرهم لا يخلو من حوشية في العبارة ، ومنهم كان فحول الشعراء .

ويرون أن شعراء المدر ألين شعراً وأرق لفظاً ، وألطف كناية ، وأدمث اسلوباً ، وان اشعرهم جميعاً اهل المدينـــة ، ومنهم كان شعراء النبي الذين نافحوا عنه الشعراء الناشئين في قريش بعد أن لم يكن لها شعر يذكر . وان شعر الانصار من الأوس والخزرج في هذا العصر لان في اللفظ وهان في المعنى عما كان عليه في الجاهلية .

وعللوا ذلك بأن الاسلام نسخ كثيراً من بواعث الشر التي تثير النفوس

وتشعل الاحقاد : كالعصبية الجاهلية ، وحب الانتقام ، والأخذ بالثأر والنشوة بالخمر ، والهجاء الكاذب ، وأكثر ما يجيش بالخواطر عند احتدام الشرور ، وتسكن اليه النفس عند الرضا والسرور .

وأمر آخر ذكروه، وهو أن كثرة تلقيهم آيات هذا القرآن المعجز ونزوله بينهم كل حين بما يبهرهم ويأخذ بمجامع قلوبهم ، صغـّرَ قيمـــة شعرهم في اعينهم، واستضعفوا معانيهم وأسلوبهم بالاضافة الى معانيه وأسلوبه، فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه ، ومثلوا لذلك بقوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الاسلام ، وشموخ شعر امية بن الصلت في الجاهلية واستخذائه في الاسلام لمكان حسده لرسول الله .

قال الثعالبي [1] : كان حسان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ؛ ويغبّرُ في نواصي الفحول ، ويدعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء . ويقول مثل قوله في بني جفنة ملوك غسان :

أولاد جفنـــة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكـــريم المفضل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول

فلما أدرك الاسلام وتبدل الشيطان ملكاً تراجع شعره وكاد يركُ في قوله ليعلم أن الشيطان اصلح للشعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك .

---

(١) ٨٠ خاص الخاص للثعالبي ط ١٩٠٨ .

وأكبر من ذلك أن لبيدا العامري وهو من افحل شعراء الجاهلية ، عندما انقطع الى حفظ القرآن ومدارسته ، انقطع عن قول الشعر في الاسلام ؛ ويقولون إن من لم يتعرض لهذا الافحام والانبهار من اعراب البوادي بقي شعره إلا قليلاً على غرار شعر الجاهلية من امثال الحطيئة وكعب بن زهير ، وكل هذا كلام مقبول في جملته .

ولكن كثيراً من النقاد يرون أن بعض ما يستضعف من شعر شعراء مكة والطائف مدسوس عليهم .

●

عناية الخلفاء بالشعر

وبعد فقد كان المسلمون والخلفاء يرعون الشعر والشعراء . وكان ابرز عمل قاموا به هو الدعوة الى المحافظة على الشعر الجاهلي وروايتــه وكتابته خوفاً من أن يندثر بكثرة من قتل من العرب في الفتوحات ، ولما شاهدوه من قلة الرغبة في الشعر عند الناس بتأثير الشعور الديني الجديد ، ومحافظة على لغة القرآن ولفهم بلاغته وإعجازه ..

ولهذا قال عمر بن الخطاب: عليكم بديوانكم لا تضلوا ، فقالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم ..

وكانوا يعتزون بالشعر ، ويقدرون رسالته ، وينصتون لحكمته ، وينوهون بأثره . قال عمر : افضل صناعات الرجل الأبيــات من الشعر يقدمها في حاجاته ، يستضعف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم .

وسئل مالك بن انس : من اين شاطر ابن الخطاب عماله فقال : اموال كثيرة ظهرت عليهم ، وأن شاعراً كتب إليه يقول :

نحج ونغزو كل عام إذا غزوا
فأنى لهم وفر ولسنا بذي وفــــر

إذا التـــاجر الهندي جاء بفارة

من المسك راحت في مفارقهم تجري

فدونك مال الله حيث وجـدته

سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

قال : فشاطرهم عمر اموالهم .

وقال ابن عباس ، قال عمر بن الخطاب : انشدني من قول زهير فأنشدته قوله في هرم بن سنان حيث يقول :

قوم أبوهم ســـنان حين تنسبهم

طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

قوم بأولهم أو مجدهم قعـــدوا

فقال له عمر : ما كان أحب إلي لو كان هذا الشعر في اهل بيت رسول الله ، ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له : من انت ؟ قال : انا ابن هرم بن سنان ، قال : صاحب زهير ؟ قال نعم ، قال : أما إنه كان يقول فيكم فيحسن ، قال : كذلك كنا نعطيه فنجزل ، قال : ذهب ما اعطيتموه وبقي ما اعطاكم .

وكان كثير من الخلفاء والصحابة نقاداً بفطرتهم وذوقهم ، فأبو بكر يقدم

النابغة ويقول هو أحسنهم شعراً وأعذبهم بحراً وأبعدهم قعراً[١]. وكان عمر يتذوق الشعر وينقده[٢]، وقدم زهيراً ولم يحكم بذلك فحسب بل شرح سبب حكومته بأنه كان لا يعاظل في الكلام وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح احداً إلا بما فيه[٣]، وكان يرى انه اشعر الناس[٤]، وكان يجلس هو وأصحابه فيتذاكرون الشعر والشعراء وأيهم اشعر[٥].

وقال[٦] عمر بن الخطاب للوفد الذين قدموا عليه من غطفان: من الذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبــة

وليس وراء الله للمــرء مطلب

قالوا: نابغة بني ذبيان قال: هو أشعر شعرائكم.

وكذلك كان علي بن ابي طالب، وكان يقدم امرأ القيس على الشعراء، ويقول: هو احسنهم نادرة وأسبقهم بادرة[٧].

هذا وقد كان للأنصار ديوان شعر، يجمع شعر شعرائهم. وكان هــذا الديوان موجوداً بين ايدي الرواة في القرن الثاني الهجري..

---

(١) ٧٨ جـ ١ العمدة.

(٢) راجع: ٩٩ إعجاز القرآن، ١٦٩ و ١٧٠ جـ ١ و ٢٢٤ و ٢٢٥ جـ ٢ البيــان والتبيين – و ٣٨ و ٥٩ و ٦٠ و ٧٦ جـ ١ العمدة.

(٣) ٣٥ الموازنة، ٨٠ جـ ١ للعمدة، ٣٢ جمهرة اشعار العرب، وص ١٠٥ نقد الشعر.

(٤) ٣٠٩ جـ ٢ العقد وما بعدها.

(٥) ٣٢ الجمهرة.

(٦) ٣٤ الجمهرة.

(٧) ٢٧ و ٢٨ جـ ١ العمدة.

صور من الشعر في عصر صدر الاسلام

(١)

قال ابو دهبل الجمحي يمدح النبي ﷺ :

إن البيوت معادن فنجـــاره
ذهب وكل بيوتـــه ضخم[١]

عقم النســـاء فما يَلِـدْنَ شبيهه
إن النسـاء بمثـــله عقـــم

متهلل بنعم ، بلا متباعد
سيان منه الوفـــر والعدم[٢]

---

(١) البيوت المراد بها القبائل. المعادن جمع معدن وهو منبت الجوهر . النجار الاصل. وكل بيوته ضخم أي أن القبائل التي اكتنفته من اخوانه وأعمامه شريفة عظيمة مثل هاشم وأمية ومخزوم.

(٢) متهلل بنعم : اي فرح بقول نعم ، بلا متباعد : اي بعيد من قول لا ، وسيان : مثلان ، الوفر : المال الكثير ، العدم : قلة المال .

(٢)

وقال حسان يمدح النبي صلوات الله عليه :

أغر[١] عليــــه للنبوة خاتم
من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه
إذا قال في الخمس المؤذن : أشهد
وشـــق له من اسمـــه ليجلّه
فذو العرش محمود وهذا محمد
نبيٌّ أتانا بعـــد يأس وفـــترة
من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجـــاً ُمستنيراً وهادياً
يلوح كما لاح الصقيل المهند[٢]
وأنذرنا ناراً ، وبشر جنـــة
وعلّمنا الاسلام ، فالله نحمد

---

(١) أبيض الوجه .
(٢) هو السيف ، وسمي مهنداً لأنه مصنوع من حديد الهند .

وأنت إله الخلق ربي وخالقي
بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا
سواك ، إلهاً أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله
فإياك نستهدي ، وإياك نعبد

(٣)

كعب بن مالك يرثي الرسول ﷺ :

ألا أنعي النبي الى العالمينا
جميعاً ولا سيا المسلمينا
ألا أنعي النبي لاصحابه
وأصحاب اصحابه التابعينا
ألا أنعي النبي الى مَنْ هدى
من الجن ليلة إذ يسمعونا
لفقدِ النبي إمام الهدى
وفقدِ الملائكة المنزلينا

(٤)

قال الحطيئة يمدح :

يزور امرأ يؤتي على الحمد ماله
ومن يؤت أثمان المحامد يحمد

يرى البخل لا يبقي على المرء ماله
ويعلم أن البخل غير مخلد

كسوب ومتلاف إذا ما سألته
تهلل واهتز اهتزاز المهند

متى تأته تعشو الى ضوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقد[١]

(٥)

وقال معن بن اوس المزني في استصلاح ذي القربى :

وذي رحم قلّمت أظفار ضغنه
بحلمي عنه وهو ليس له حلم[٢]

---

(١) تعشو : تقصد .
(٢) الضغن : الحقد .

صبرت على ما كان بيني وبينه
وما يستوي حرب الاقارب والسلم

ويشتم عرضي في مغيبي جاهداً
وليس له عندي هوان ولا شتم

إذا سمته وصل القرابة سامني
قطيعتها ، تلك السفاهة والاثم

ويسعى إذا أبني ليهدم صالحي
وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم

فما زلت في ليني له وتعطفي
عليه كما تحنو على الولد الام

وخفضٍ له مني الجناح تألفاً
لتدنيه مني القـــرابة والرّحم

وصبري على أشياء منه تريبني
وكظمي على غيظي وقد ينفع الكظم

(٦)

وقال ابو ذؤيب الهذلي ، وكان له اولاد سبعة فماتوا كلهم ، يرثيهم :

أمن المنون وريبـــة تتفجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع
أودى بنيّ وأعقبـــوني حسرة
بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
سبقوا هويّ وأعنقوا لهـــواهم
فتخرموا ولكل جنب مصرع
فبقيت بعدهم بعيش ناصب
وإخـــال أني لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنيـــة أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمـــة لا تنفع
فالعين بعدهم كأن حداقهـــا
سُمِلَتْ بشوكٍ فهي عُورٌ تدمع
وتجلدي للشامتين أريهمـــو
أني لريب الدهر لا أتضعضع

والنفس راغبة إذا رغبتهـــا
وإذ تردّ الى قليـــل تقنع

(٧)

وقال متمم بن نويرة يرثي اخاه مالكاً :

لعمري وما دهري بتأبين مالك
ولا جزعاً مما ألم فأوجعـــا
وما كان وقّـافاً إذا الخيل أحجمت
ولا طالباً من خشية الموت مفزعا
ولا بكهام ســـيفه من عدوه
إذا هو لاقى حاسراً او مقنعاً
أبي الصبر آيات أراها وانني
أرى كل حبل بعد حبلك اقطعا
واني متى ما ادع باسمك لم تجب
وكنت حرياً ان تجيب وتسمعا
تحيتـــه مني وإن كان نائماً
وأمسى تراباً فوقه الارض بلقعا

فإن تكن الايام فرقن بيننـــا
فقد بان محموداً اخي حين ودّعا
فعشنا بخير في الحيـــاة وقبلنا
اصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
سقى الله ارضاً حلّها قبرُ مالك
رِهَامَ الغوادي المزْجيات فأمرعا

(٨)

وقال الحطيئة :

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل (١)
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
اخي جفوة (٢) فيه من الانس وحشة
يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

(١) أي مقيم ثلاث ليال، على الطوى : اي الجوع ، المرامل : الذي فني زاده والتصق بالرمل.
(٢) الجفوة : الوحشة .

وأفرد في شعب عجوزاً إزاءها
ثلاثة اشباح تخالهمــو بهما[1]

حُفاة عُراة ما اغتذوا خبز ملة
ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما[2]

رأى شبحاً وسط الظلام فراعه
فلما رأى ضيفــاً تشمَّر واهتما

فقال هيا رباه ضيف ولا قرى !
بحقك لا تحرمه تا الليلة اللّحما

فقال ابنـــه لما رآه بحيرة
ايا ابت اذبحني ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعدم علّ الذي طرا
يظن لنا مالاً فيوسعنـــا ذماً

فروّى قليلاً ثم احجم برهـــة
وان هو لم يذبح فتاه فقد هما

---

(١) الشعب : الطريق في الجبل ، والبهم : جمع بهمة الصغير من اولاد الضأن والمعز .
(٢) الملة : الرماد الحار .

فبيناهما عنّت على البعـــد عانة

قد انتظمت من خلف مسحلها نظما[1]

عطاشا تريد الماء فانساب نحوها

على انه منهـــا الى دمهـــا أظما

فأمهلهـــا حتى تروت عطاشها

فأرسل فيهـــا من كنانته سهما

فخرت نَحوصٌ ذات جحش سمينةٌ

قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحما[2]

فيا بشره إذ جرّها نحو قومـــه

ويا بشرهم لما رأوا كلمهـــا يدمى

وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم

وما غرموا غرماً وقد غنموا غنماً

وبات ابوهم من بشاشـــته أبا

لضيفهمو والأم من بشرها أما

---

(١) عنت : ظهرت ، العانة : القطيع من حمر الوحش ، المسحل : حمار الوحش .

(٢) النحوص : الاتان السمينة ، الجحش : ولد الحمار ، اكتنزت : امتلأت .

القصيدة :

وهذه القصيدة من اروع الصور الشعرية التي نظمها الشعراء وهي من الصور الوصفية الرفيعة التي نماها فكر الحطيئة ، وخلفتها شاعريته الثرة ، وأضفت عليها موهبته الشعرية حللاً من الجمال والحسن والسحر .

وقد قال يصف فيها اعرابياً سمحاً كريماً صاحب صيد ألم به ضيف ولم يجد ما يقدمه إليه ، حتى عزم عليه ابنه أن يذبحه وييسر للضيف طعامه ، ثم بدا له سرب من حمر الوحش فاصطاد منها نحوصاً ذات جحش سمينة اشبع منها ضيفه ، وأشبع عياله . فهي تدور حول وصف صورة من صور الكرم العربي ، ممثلاً في شخص هذا الاعرابي .

وهي من روائع الشعر القصصي ، وفيها إنسانية رفيعة متأثرة بالاسلام وآدابه وروحه في المروءة والإيثار . وتجمع القصيدة دقة الوصف ، الى جمال الرصف ، واشراق الديباجة الى تأنق الصياغة والنسج الى ما فيهـا من تخير رفيع للألفاظ والأساليب والمعاني والأخيلة والصور الشعرية .. وتدل على أن الشعر العربي عرف القصة الشعرية منذ اقدم عصوره . ففيها عرض قصصي للموضوع ، وبلوغ به الى ذروة المشكلة ، والتفكير في حلول له ، ومفاجأة القارىء بالحل الأخير .

أهمية القصيدة :

هذه القصيدة قصة شعرية مؤثرة ، فيها كل عناصر القصـــة من الحدث والحركة والعقدة وحل الأزمة؛ ومن طابعها القصصي تستمد القصيدة اهميتها لندرة القصة الشعرية في شعرنا القديم .

وفي القصيدة من الجزالة وشدة الأسر وقوة اللفظ ، ودقة الوصف، ومن الكنايات الجميلة — مثل آخي جفوة — والاستعارات البليغة — مثل: « ثلاثة

اشباح» يريد اطفالاً اصابهم الجوع والطوى والهزال بما اصابهم به حتى صاروا كالأشباح ، فهم احياء ولا يكادون يبصرون — والتشبيهات الرائعة — مثل : وبات أبوهم من بشاشته أباً للضيف ، والأم من بشرها أماً له ، أي كالأب وكالأم — والطباق اللطيف — مثل «من الأنس وحشة» .. كل ذلك مما يجعل لها اهمية بالغة في الشعر العربي .

الوحدة العضوية للقصيدة :

تتناول القصيدة موضوعاً واحداً مترابط الأفكار والمعـــاني والصور والأخيلة والمشاعر . .

١ — فمن البيت ١ — ٤ في وصف عربي فقير جائع هو وزوجه وأولاده .

٢ — ومن البيت ٥ — ٩ في الحديث عن ظهور ضيف وسط الظلام ، وترحيبه به ، واهتمامه بأمره ، وحيرته فيما يقدمه له من قرى ليس عنده منه شيء ، ووقوف ابنه مع ابيه في هذه الازمة الناشئة ، وعرضه على الأب أن يذبحه ليقدمه قرى للضيف ، خوفاً من ذم الضيف له وتشهيره به .

٣ — ومن البيت ١٠ — ١٣ يتحدث الحطيئة عن ظهور قطيع من حمر الوحش امامه ، وهي عطاش تريد المـــاء ، ويتقدمها حمار وحشي ضخم ، وخلفه باقي القطيع تسير في انتظام ، ووقوف العربي قريباً من هذا القطيع ، وأمهله ، حتى ارتوت عطاشه ، ثم ارسل فيها سهماً من كنانته ، فاصطاد منها اتاناً سمينة ذات ولد .

٤ — ومن البيت ١٤ — ١٦ يتحدث الشاعر عن بشره وبشر اولاده بهذا الصيد السمين ، وعن قراه لضيفه ، وأدائه لحقه ، وإكرامه له .

هل القصيده إسلامية :

إن ما في القصيدة من إنسانية رفيعة تجعلنا نقول إنها متأثرة بالاسلام ،

وبآدابه، وروحه في المروءة والإيثار، وورود قصة الذبح فيها إنما هو للمبالغة في وصف هذا العربي بالكرم ، وبخاصة أن الحطيئة في شعره الاسلامي ظل متأثراً بالجاهلية وأفكارها .

وقد يصح أن تقول إن عرض الإبن على ابيه أن يذبحه لقرى الضيف دليل على جاهلية القصيدة ، فذبح الابن عادة قديمة عند العرب وغيرهم لتقديمه قرباناً للآلهة ، وقد قضى عليها الاسلام الكريم ومن قبله حنيفية ابراهيم .

الحطيئة يهجو الزبرقان[1]

المناسبة التاريخية للقصيدة :

كان الزبرقان بن بدر من أشراف العرب وأنوفهم ، وكان قوم بغيض ينازعونه الشرف ويزاحمونه في السيادة ، فلقي الزبرقان الحطيئة واتفق معه

---

(١) هو ابو مليكة جرول بن اوس العبسي ، شاعر مخضرم احد زعماء الهجاء والمدح ، كان إذا مدح رفع وإذا هجا وضع ، نشأ دعياً لا يعرف له نسبا ولا يجد الى الشرف سبباً ، وكان ذميماً قبيح الخلقة شرها محباً للمال ، فحقد على المجتمع ، وتجهم للحياة ، وسل لسانه على النـــاس فهجاهم وأوجرهم رماحاً مريشة ، بل لقد هجا ابويه وزوجه ونفسه واشرأبت بنفسه منازع الشر فجعلت منه صورة المرذيلة، وشب سيّء الخلق دنيء النفس رقيق الدين سؤولاً ملحفاً جشعاً نزاعاً الى الشر ، مجانباً الخير ، فلما جاء الاسلام أسلم واستظل بلواء الدين وعاش متنقلاً في القبائل يمدح من وصله ويذم من قطعه وينتسب الى عبس تارة وإلى ذهل تارة اخرى ويهجو اليوم من مدحه بالأمس ، لا يرعوي ولا يستحي وولغ في اعراض الناس ومرج لسانه في شرفهم واشتدت وقيعته فيهم ، لا يفرق بين عظيم وحقير ولا يرعى إلا ولاذمة ، فقد هجا الزبرقان بن بدر وهو من سادة القوم والأثير عند النبي صلى الله عليه وسلم وعامل عمر بن الخطاب على الرغم من احسانه اليه ، فاستعدى عليه امير المؤمنين فحبسه ثم اشترى منه اعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم وعاش حتى ادرك معاوية وتوفي سنة ٥٩ هـ .

والحطيئة أحد الشعراء الهجائيين الذين يتقي الناس ألسنتهم ويخطب ودهم ، وشعره رائق=

على أن يحل بدياره ويعيش في جواره ، على أن يخلع عليه مطارف المدح ، فلما ألقى الحطيئة عصـــا الترحال في ساحة الزبرقان دبت عقارب الحسد في نفوس آل بغيض ودبروا الحيلة ليحولوا الحطيئة إليهم ووعدوه ، ومنوه الأماني المعسولة ، فاعتلجت الاطماع بنفسه ولحق ببغيض وقومه ، فأجزلوا له العطاء واستمطروا منه شآبيب الثناء وصاغ بهـذه القصيدة فيهم عقود المدح ، متناولاً الزبرقان بالذم والقدح .

أبيات القصيدة :

والقصيدة قصيرة لا تعدو خمسة عشر بيتاً ، وهي هذه :

=الأسلوب ، ثر الينبوع ، جزل اللفظ ، مشرق الديباجة ، سني المعنى ، متين العبارة ، يعالج شق الأغراض، ولولا لؤم طويته وخسة نفسه لما استطاع احد من المخضرمين أن يباريه في مضمار؛ فقد كان تلميذاً وراوية لزهير ، فورث منه تنقيح الشعر وصقل الصياغة ، فجاء شعره منخولاً مصفى محكم النسج موفق النهج .

الوحدة العضوية للقصيدة

١ – اعتذار الشاعر عن نفسه :

١ ـــ والله ما معشر لاموا امرأً جنبا
في آل لأي بن شماس بأكياس

٢ ـــ لقد مريتكم لو أن درتكم
يوماً يجيء بها مسحي وابساسي

---

(١) معشر : المراد به الزبرقان ورهطه ، والجنب هنا : القريب ، في آل لأي : أي في مدحهم ، وأكياس : جمع كيس وهو اللبيب الفطن ، امرأ : يعني الشاعر به نفسه .

(٢) اصل المري : المسح على ضرع الناقة لتدر ، والابساس : أن تدعو الناقة باسمها او تفتلها في الذروة والغارب لتدر ، والمخاطب الزبرقان وقومه .

المعنى : أني حاولت كثيراً تملقكم واستدرار رفدكم ، فلم أنل منكم سبداً ولا لبداً .

٣ ــ لقد مدحتكم عمداً لأرشدكم

كيما يكون لكم متحي وإمراسي

٤ ــ لقد نظرتكم إيناء صادرة

للخِمس طال بها حوذي وتبساسي

٢ – لقاء الأمل من جديد :

٥ ــ لما بدا ليَ منكم غيبُ انفسكم

ولم يكن لجــــراحي منكم آسي

٦ ــ أجمعت يأساً مبيناً من نوالكم

ولا ترى طارداً للحر كاليـــــاسِ

---

(٣) المتح : نزح الماء من البئر ، والإمراس : وضع حبل البئر في البكرة وإعادته الى مجراه بعد انزلاقه منها .

المعنى : انه تعمد أن يقصر عليهم جهوده ، ويختصهم بمدحه ليرشدهم الى ما غاب عنهم من أسباب المجد .

(٤) اللغة : الإيناء مصدر أوني بمعنى اتعب ، والصادرة : الآتية من الماء ، والخمس : من أظماء الابل ، وهو أن ترعي ثلاثة ايام ، وترد الماء في اليوم الرابع ، والحوذ : مصدر حاذ الدابة ساقها سريعاً ، والتبساس : مصدر بس الناقة من باب نصر ، وضرب : ساقها وزجرها .

المعنى : لقد انتظرت عطاءكم مجهداً إجهاد الناقة أعياها التعب فهي تساق وتزجر .

(٥ ـ ٦) اللغة : الآسي : الطبيب ، يروى : العيب، وفي رواية : غيب انفسكم أي ما كان مستوراً من بخلكم ، والنوال : العطاء .

المعنى : حين امطت اللثام عن عيبكم وتبين لي بخلكم وأعياني علاجكم ، أزمعت اليأس من رفدكم ونفضت يدي من جوائزكم .

٧ ـــ ما كان ذنب (بغيض) أن رأى رجلاً
ذا فاقة حل في مستوعر شاسي

٨ ـــ جاراً لقوم أطالوا هون منزله
وغادروه مقيمـــاً بين أرماس

٣ - لا ذنب لي اليوم :

٩ ـــ ملُّوا قِراه ، وهرَّته كلابهمُ
وجرَّحوه بأنيـــاب وأضراس

١٠ ـــ لا ذنب لي اليوم إن كانت نفوسكم
كفاركٍ كرهت ثوبي وإلباسي

---

(٧) اللغة : المستوعر : المكان الوعر ، والشاسيء بالهمزة وسهل : المكان الغليظ المرتفع .

المعنى : لم يكن ذنب بغيض عند الزبرقان إلا انه رأى رجلاً في مكان وعر قاحل فأعانه .

(٨) اللغة : جاراً بالنصب صفة لرجل ، والهون : المذلة ، والأرماس : القبور .

المعنى : انهم تركوه موحشاً مقيماً وحده كالميت بين القبور .

(٩) اللغة : القرى : الندى والعطاء ، وهرته : نبحته ، وهو كناية عن انه كان غريبـــاً مضطهداً ، وجرحوه : سبوه ومزقوا عرضه .

المعنى : لقد ضاق آل الزبرقان ذرعاً به وبرموا بضيافته ، وأعرضوا عنه ونهشوا عرضه ، حتى احس بوحشة واضطهاد .

(١٠) اللغة : الفارك : المرأة تبغض زوجها .

المعنى : ليس الذنب ذنبي ان كنتم تبغضون شعري أومقامي بينكم بخلا كما تبغض المرأة زوجها وتكره أن ترى ثوبه وتلبسه إياه .

١١ ـــ من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

١٢ ـــ دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

١٣ ـــ وابعث يساراً الى وفـــر مذممة

واحدجْ إليها بذي عركين أنكاسِ

١٤ ـــ قد ناضلوك فأبدوا من كنانتهم

مجداً تليداً ونبلا غير أنكاسِ

---

(١١) اللغة : العرف والمعروف .

المعنى : من صنع الاحسان فلا منتدح من أن يحظى بجزائه ، إما من الناس وإما من الله .

(١٢) اللغة : الطاعم : الآكل المطعوم ، والكاسي : المكسو ، والطاعم الكاسي كناية عن ضعف همته وخموله ، وانه اصبح كالمرأة يحتاج الى من ينهض بشأنه .

المعنى : انك عديم المروءة لا مطمح لك في الحياة الا أن تكون آكلا كاسياً ، ذلك هو منتهى أملك ومرتقى سعيك فلست للرياسة ولا للذود عن الذمار والمنافحة عن الحي .

(١٣) اللغة : يسار : اسم عبد الزبرقان ، والوفر : السقاء الكامل لم ينقص من ديه شيء ، والمذممة يريد بها هنا : المملوءة ، يقال بئر مذممة أي قليلة الماء او غزيرته ، ضد ، وحدج البعير يحدجه : شد عليه الرحل ، والعرك انتفاخ في ابط البعير .

المعنى : انك لست من المكارم في العير ولا النفير وكل ما تصنعه أن ترسل عبدك الى سقاء مملوءة او تشد الرحال اليها لترضي نزواتك .

(١٤) اللغة : أنكاس : جمع نكس ، وهو اضعف السهام ، وكان العرب اذا أسروا اسيراً=

١٥ ــ ما كان ذنبيَ أن فلت معاولكم
من آل لأي صفاة أصلها راسي

= خيروه بين التخلية مع جزء الناصية وبين الأسر فإذا اختار التخلية جملوا شعره المجزوز في كنائنهم ، فإذا افتخروا اخرجوه ، فهذا هو المراد بقوله « مجداً تليداً » .

والكنائن : جمع كنانة : وهي عيبة السهام .

المعنى : انهم نازعوك في الشرف والسيادة فظهروا عليك وتبين أن آل بغيض اعلى منك كعباً، وأرفع شأناً .

(١٥) اللغة : فلت : ثلمت وأضعفت ، والمعاول : جمع معول ، وهي آلة الهدم ونحوه ، والصفاة : الحجر الصلد الأملس ، وصفاة اصلها راسي : كناية عن العراقة في المجد .

المعنى : لا تثريب علي ان قطعت حبل وصالكم ، ويممت شطري نحو غيركم الذين تحطمت معاولكم على صخرتهم العتيدة وتلاشت احسابكم امام احسابهم العريقة .

دراسة للقصيدة

(أ) الغرض :

الغرض الذي يهدف اليه الشاعر هو مدح بغيض وهجاء الزبرقان بن بدر .

(ب) المعـــاني :

أبرز ما تنتظمه عقد القصيدة من المعاني ينجلي فيما يلي .

١ – استهل القصيدة بالعتب على الزبرقان وحمله مسؤولية القطيعة والنعي عليه بوقفه موقف الإكداد والبخل .

٢ – انه حين لم يشم بارقة امل في رحاب الزبرقان نفض يديه من نواله وإحسانه واستسلم لليأس وفي اليأس احياناً راحة وهدوء .

٣ – وان آل بغيض لم يأثموا حين رأوا رجلا مثلي تجهمت له الأيام وتخلى عنه الاصحاب وأغطشت له الدنيا ، فأقالوه من كبوته ، وأنقذوه من عثرته .

٤ – وأنه لم يزهد في جوار الزبرقان ويؤثر عليه جوار بغيض إلا بعد أن رأى نفسه غريباً مضطهداً لا يجد الحفاوة والاكرام .

٥ ـ ثم ندد بتقاعس الزبرقان وقعوده عن المعالي ، وكلال همتـه وخور عزيمته وأنه لا يكاد ينهض بأعباء نفسه ، كما ينبغي أن يكون الرجل الأبي ، وإنما هو طاعم كاسي يحتاج الى من يقوم بشأنه ـ كالمرأة سواء بسواء .

٦ ـ واختتم القصيدة بالإشادة بعراقة آل بغيض واقتعادهم غارب المجد المؤثل ، وأنهم فاقوا في ذلك الزبرقان وأخملوا شأنه ، وتحطمت نصاله على صخرتهم الوطيدة .

٧ ـ ويتجلى في هذه المعاني العمق وبعـد الغور ، والتأنق والميل الى الحكمة كقوله :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

(ج) الأسلوب :

الحطيئة شاعر مخضرم عاش في الجاهلية والاسلام ومع ذلك فإن شعره يوشك أن يكون على وتيرة واحدة في جاهليتـه وإسلامه ، ذلك لأنه كان راوية لزهير وآله من بعد ، وزهير كما تعلم كان ينقح شعره ويهذبه حتى اشتهر بالحوليات ، فجاء شعر الحطيئة مصفى منخولاً جزل اللفظ قوي التركيب محكم النسج متجاوب الفقرات متساوق العبارات مع الزهد في الكلمات الضاربة في فيافي الغرابة ، سواء في الجاهلية أم في الاسلام .

وهناك سبب آخر لتشابه شعر الحطيئة في الجاهلية والاسلام في نسجه وهو انه عاش في البادية ولم يتأثر بعد ظهور الاسلام تأثراً كبيراً بمبادئه ودعوته .

(د) الصور البلاغية :

وليس من شك في أن قسطاً كبيراً من روعة قصيدة الحطيئة وجمال اسلوبها وعذوبة نظمها وأناقة معناها ، مصدره الألوان البيـانية التي اشتملت عليها

من تشبيه واستعارة وكناية ، وإن شئت فانظر الى روعة الاستعارة في قوله « لقد مريتكم » ، وقوله « كيما يكون لكم متحي وإبساسي » فإنها تنبىء عن بذله كل جهد في استعطافهم والتودد إليهم ، ولكنه لم يجد سوى الخيبة والأسى ، وقوله « وهرته كلابهم » فإنه كناية دقيقة عن وحشته وإحساسه بالغربة ، فإن من شأن الغريب أن تنبحه الكلاب .

وهذه استعارة رائعة حقاً في قوله « أن فلت معاولكم .. صفاة » .

(ه) الطابع الشعري :

١ ـ كان الحطيئة من أشعر المخضرمين . لاحتفاظ شعره بربيع شبابه وغض إهابه ورصانة عبارته وجزالة كلماته وقلة ولوع شعره بالغريب الموغل في الغرابة مما يكد الذهن ويرهق الخاطر ، لأنه كان ينخل شعره ويصفيه ، ويصطفي ما حلا وعذب من الأساليب والألفاظ .

٢ ـ وإذا وازنّا بين هذه القصيدة وهي إسلامية وبين قصيدة جاهلية تشاكلها في موضوعها ألفيناهما تكادان تنزعان عن قوس واحد وتنبعان من ينبوع متحد لأن الحطيئة كان رقيق الدين فأرخى لنفسه زمام الشاعرية واستدعى شياطين الشعر وأسرج افراس نوازعه وصال في كل ميدان وترنم في كل مكان ، وحلّق في الآفاق فأجاد حلة الشعر ربطتها وسربالها ، لأن أصدق الشعر أكذبه كما يقولون ، ولهذا يقول الله عز وجل في محكم التنزيل : « **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون** » . ومن ثم فإننا حين نجد شعر الحطيئة ممتازاً قوياً في الاسلام كما كان قوياً في الجاهلية لتفريده فوق كل فن، نجد أن شعر حسان في الاسلام أقل شأناً وأهون أمراً .

٣ ـ الهجاء : يتسم الحطيئة بميسم الهجاء المقذع ونهش اعراض الناس

بالحق وبالباطل والولغ في كرامتهم والحط من شأنهم لأتفه الأسباب، وقصته مع الزبرقان تدل على لؤم طبيعته وخبث طويته ، وبنوع خاص حين جعل هجاءه في صورة نصح يسديه الى هذا الذي يعني نفسه في طلب المجد ولا يجد سبيلا اليه ، فيقول : « دع المكارم لا ترحل لبغيتها » ، وكان لسلاطة لسانه مخشيّ الجانب ، حتى لقد كانوا يخطبون وده ، ويشترون مهادنته ، بتقديم الهدايا والصلات إليه ، يجمعونها ويذهبون إليه بها طلباً لثنائه ، وتجنباً لمذمة هجائه ، وسلاطة لسانه .

●

الفصل السادس

حسان شاعر الإسلام

« المتوفى عام ٥٤ هـ »

حياة حسان :

١ — أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الانصاري الخزرجي النجاري ، أشهر شعراء رسول الله ، وقف من حوله يدافع عن الإسلام ، والعقيدة دفاعاً جليلاً ، ويناضل خصومه من المشركين ، وطارت شهرته بالشعر في كل مكان .

٢ — وهو من بني النجار أخوال رسول الله ، لأن أم جده عبد المطلب منهم ، فحسان له برسول الله صلة قرابة ، وبنو النجـــار من الخزرج ، وهي القبيلة الكبيرة التي أقامت في المدينة مع الأوس ، وهمـا من الأزد القحطانيين .

٣ — ولد ونشأ حسان في المدينة ، وقد كانت المدينة في العصر الجاهلي مجتمعاً صغيراً تسوده الحروب والخلافات الداميـــة التي كانت تقوم بين الأوس والخزرج ، وبينهم وبين اليهود الذين كانوا قد استوطنوا المدينة وعاشوا فيها .

وكانت العلاقة بين الأوس والخزرج في الجاهلية علاقة عـــداء شديد ، وخصومات كثيرة ، وحروب وأيام مأثورة ، وكان قيس بن الخطيم شاعر الأوس ، وحسان شاعر الخزرج ، فلمـا أسلمت القبيلتان وهاجر الرسول الى المدينة ، ألف بين قلوبهم ، وجمع من شتاتهم ، فأصبحوا بنعمة الله اخوانا .

٤ – وولد حسان بالمدينة قبل الهجرة بنيف وستين عاماً (وقبل مولد الرسول بنحو ثماني سنين) واشترك مع قومه في حروبهم ومفاخراتهم ، وجاشت نفسه بالشاعرية المتدفقة ، فأصبح شاعر الخزرج ، والمدافع عن عن أحسابهم ومآثرهم ، وأخذ يناضل قيس بن الخطيم شاعر الأوس ، ويفاخر بقومه ، واستحكمت شاعرية حسان وطارت شهرته في الجزيرة العربية ، ووفد على ملوك الحيرة وبني غسان يمدحهم وينال جوائزهم ، وينافس فحول الشعراء كالنابغة وغيره في الحظوة عندهم ، وعظمت مكانته في قصورهم .

وكان يدعم من منزلة حسان في الشعر شرفه وحسبه ومجده التليد ، فقد كان أبوه ثابت بن المنذر بن حرام من سادة قومه وأشرافهم ، وجده المنذر كان حكماً بين الأوس والخزرج يوم سميحة ، وهو يوم من أشهر أيامهم .

وهكذا عاش حسان في الجاهلية ، يتكسب بشعره ، كالأعشى والنابغة والحطيئة ، وكان حسان يقصد بمدائحه بني غسان عاماً ، ويقعد عاماً وكان يرجع عنهم بالجوائز السنية والأموال الطائلة ، حتى جعلوا له أموالاً طائلة يبعثون بها إليه ، ولاميته المشهورة في مدح « جبلة بن الأيهم » آخر ملوك الغسانيين من أجود شعره ، وقد أنشدها وعنده النابغة وفضلها جبلة على شعر النابغة . وما زال بنو غسان على برهم بحسان وإيثارهم له حتى وهو في إسلامه وهوم في نصرانيتهم .

وهكذا كانت حياة حسان في الجاهلية ، تمضي بين الترف واللهو ووصف الخمر ومجالسها والانتجاع للملوك والإشادة بهم ، والاشتراك في المعارك التي كانت تقوم بين قومه الخزرج وبين الأوس ، والتنويه بمجد قومه وأحسابهم ، والافتخار بمآثرهم وأيامهم في الجاهلية ، الى أن بلغ حسان الستين من عمره .

٥ — وأشرق نور الإسلام ، ودخل فيـــه الكثيرون من أهل المدينة ، وأسلم حسان ، بعــد الهجرة واطمأن قلبه الى الإسلام ، وأخذ يدافع عن الرسول بلسانه ، فاتخذه شاعره ، وقربه لديه ، ورفع مكانته عنده .

كان ثلاثة رهط من قريش يهجون رسول الله والأنصار ، وهم : عبد الله ابن الزبعري ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، ومعهم ضرار بن الخطاب وأبو عزة الجمحي الذي أسر يوم أحد وقتل[١] ، وهبيرة بن أبي وهب القرشي وكان شديد العداوة لله ولرسوله ، فأخمله الله ، وأمية بن أبي الصلت الذي أخزاه الله ، ومات في العام التاسع من الهجرة[٢].

وقد استنصر رسول الله الأنصــار ، وندبهم للرد عليهم ، فأجابه ثلاثة نفر من الأنصار : كعب بن مالك[٣] ، وعبد الله بن رواحة (٩ هـ) ، وهو أشعرهم ، وأمره الرسول بهجـــاء المشركين وقال له اهجهم وروح القدس معك ، وبعث الرسول لابن رواحة وقال له : عليك بالمشركين[٤] ، وأثنى على كعب بن مالك ، ونوّه بشعره في الدفاع عن رسول الله .

ويروى أن أحد الصحابة قال — لمـا اشتد هجاء المشركين للرسول — لعلي بن أبي طالب : اهج عنا القوم الذين قد هجونا ، فقال علي : إن أذن لي الرسول فعلت ، فقال رجل يا رسول الله : ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا ، فقال له ﷺ : ليس عنده ذلك ، ثم

(١) أسر يوم بدر فرحمه الرسول وأطلق سراحه بعد أن عاهده أن لا يعين عليه بشعر ، ولكنه خان العهد وهجا الرسول بعد يوم بدر (١٥٤ و ١٥٥ طبقات الشعراء لابن سلام) .

(٢) راجع ترجمتنا له في كتابنا « أعلام الشعر الجاهلي » .

(٣) هو كعب بن مالك الأنصاري (٢٧ ق هـ — ٥٠ هـ) .

(٤) ٨٨ طبقات الشعراء لابن سلام — المطبعة المحمودية بالقاهرة .

ندب رسول الله الأنصار ، فقال حسان : أنا لها ، وأخذ حسان وكعب يعارضان المشركين بمثل قولهم من الوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان أشد القول قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم شعر ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الدين كان أشد القول عليهم شعر ابن رواحة .

وكان رسول الله يسمع من حسان ويقول له : أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس[1] .

وهكذا عاش حسان في الإسلام شاعر الرسول والرسالة ، بعد أن كان في الجاهلية شاعر الخزرج وشاعر المدينة .

---

(١) تصدى لهجاء قريش وذكر مثالبها ، فكان قوله كا يقول رسول الله : « أشد من وقع الحسام في غبش الظلام » ولأجل أن يكون لهجائه مضاضة في نفوس قريش ووقع شديد لديهم أتى أبا بكر فأعلمه أنساب قريش وجعل يدله على عوراتهم ، فيقول له : كف عن فلان واذكر فلاناً ، وكف عن فلانة واذكر فلانة ، وذلك لموضع الرسول من قرابة قريش ، فجعل يتعرض لأعراضهم بعيداً عما يمس رسول الله واستله منهم استلال الشعرة من العجين كا يقول .. ومن شعره في هجاء ابي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد تبين فيه حذقه للنسب بما علمه ابو بكر حتى قالت قريش : لقد قال ابن ابي قحافة الشعر بعدنا ، قوله :

وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
ومن ولدت ابناء زهرة منكم ... كرام ولم يلحق عجائزك المجد
وإن امرأً كانت سمية امه ... وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهد
وانت هجين نيط في آل هاشم ... كا نيط خلف الراكب القدح الفرد

وكذلك تصدى حسان للشعراء اليهود في المدينة من مثل الربيع بن ابي الحقيق وكعب ابن الأشرف وغيرهما ، ويقول حسان في رثائه للرسول :

فرحت نصارى يثرب ويهودها ... لما تواری في الضريح الملحد

٦ – واستمر حسان مبجلاً محترماً من الخلفاء والصحابة بعد وفاة رسول الله ، ومات عام ٥٤ هـ في خلافة معـاوية ، وعمره عشرون ومائة عام ، قضى نصفها فى الجاهلية ونصفها في الإسلام .

شعره وشاعريته :

كانت شاعرية حسان العالية الطبقة فى البلاغة مضرب المثل ، ونستطيع أن نعلل أسباب نبوغه في الشعر بما يلي :

١ – ميراثه في الشعر من قومه فقـــد كان آل حسان من أعرق بيوت العرب في الشعر والشاعرية ، فكان أبوه وجـده شاعرين ، وكان ابنه عبد الرحمن وحفيده سعيد بن عبد الرحمن شاعرين وكان هو أشعر أهل بيته ، ويقول المبرد : « وأعرق قوم فيه الشعر آل حسان ، فانهم يعدون ستة في في نسق واحد ، وهم سعيـد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر ابن حرام[1] .

٢ – الحروب والملاحم والمناقضات بينـه وبين قيس بن الخطيم ، التي خاضها حسان في الجاهلية .

٣ – طمعه في المال ، جعله يقول الشعر في مدح الملوك في الجاهلية ويبلغ من ذلك درجة عالية في البلاغة .

٤ – فخره بقومه ، وقد كان حسان لمكانة قومه بين العرب يفتخر بمجد عشيرته ، والفخر مما يثير الشاعرية ويبعث عليها .

---

(١) كان كذلك كعب بن مالك الأنصارى من اسرة عرفت بالشعر ، ابوه شاعر ، وعمه قيس بن ابي كعب شاعر كذلك ؛ وكان ابنه عبد الرحمن بن كعب شاعراً ، وحفيـده بشير ابن عبد الرحمن شاعراً مثله ، ومن احفاده شعراء آخرون .

ثم جاء الإسلام وأسلم حسان وأخـذ يخوض معارك الشعر في الدفاع عن الرسول والرسالة ، بكل ما أوتي من قوة ، وأكسبه ذلك منزلة شعرية عالية ، وشاعرية ثرة خصبة .

منزلته في الشعر :

كما كان شاعر الأنصار في الجاهلية كان شاعر النبي ﷺ ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام ، وأجمعت العرب على أن حسـان أشعر المدر وهم أهل المدينة ، ومكة والطائف وأهل قرى البحرين من عبد القيس ، وكان أجزل شعره وأحصفه ما قاله في شبيبته وكهولته في الجاهلية من مثل ما ناقض به قيس بن الخطيم في وقائع الأوس والخزرج ، ومدح به آل جفنة وآل النعمان ابن المنذر ؛ ولما أسلم كان قد مضى من عمره ستون سنة ولكنها لم تطفىء شعلة خاطره ، ولم تفلّ من غرب لسانه ، ووجد فيه رسول الله ﷺ بقية من النكاية لأعدائه أبقاها فيه انطباعه على الهجاء منذ شبّ ودعا الله أن يؤيد فيه هذه البقية بروح القدس[1] . وقد رفع النقاد من منزلة حسان في الشعر ، فقال ابن سلام : « هو كثير الشعر جيـده » ، وقال أبو الفرج فيه : « حسان فحل من فحول الشعراء » .

وصف شعره :

(ا) شعر حسان في الجاهلية فحل جزل قويّ رائع ، بعيد في مذهب الشعر وعموده ، شأنه شأن الشعراء الجاهليين ، وأكثر أغراضه في الجاهلية هي ما يلي :

---

(١) ٢٥٤ الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام للمؤلف ، الخفاجي .

(٢) ٨٤ طبقات الشعراء .

١ — الهجاء : وأول ما قاله كان في مناقضته لقيس بن الخصيم ، وشعراء الأوس ، ثم هجا خصومه وخصوم قومه عامة .

٢ — المدح : كما في مدحه ابني غسان والنعمان بن المنذر وسواهم .

٣ — الفخر : الذي وصف فيه مجد قومه وأحسابهم ومآثرهم ومكانتهم عند العرب .

٤ — الغزل والنسيب : فقد تغزل حسان في الجاهلية بشعثاء وعمرة وبغيرهن غزلاً رقيقاً .

أما منزلته في الشعر في الجاهلية ، فيصفها حسان نفسه، في رواية يصور[١] فيها ذهابه الى النعمان وخوفه من النابغة ورهبته من شعره[٢] ، ويستمر خائفاً من النابغة حتى أمام الملك الغساني ويمدحه وعنده النابغة الذي يعجب بشعر حسان اعجاباً شديداً .

(ب) وأما شعره في الإسلام ، فيقول النقاد فيه إنه قد لان وضعف بعض الشيء . وإن كان النقاد ومن لهم بصر بالشعر يرون ان شعره في الإسلام كان لا يزال كعهده في زمن الشباب قوياً حصيفاً رصيفاً في مواضع خاصة ، في هجائه للمشركين بمعارضة شعرهم وفي فخره وحماسته ، ويرون أيضاً أن كثيراً مما وجد فيها من شعره ليناً ضعيفاً لم تكن نسبته إليه صحيحة ، وإنما وضعه المتكثرون من الشعر من رواة المغازي والسير ، قال الأصمعي مرة : « حسان أحد فحول الشعراء » ، فقال أبو حاتم : « تأتي له أشعار لينة » ، فقال الأصمعي : « تنسب له أشياء لا تصح عنه » .

وأما ما يستلان من شعره فهو بعض ما قاله في وصف عقائد الإسلام

---

(١) ٢٥٢ ، ٢٦١ الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام — خفاجى .
(٢) كان ذلك في صدر شباب حسان وفي بدء شاعريته — طبعاً .

وشعائره وتعداد فضائله وما أعد الله للمؤمنين من الثواب ، وللمشركين من العقاب ، او بعض ما قاله في مَدْح رسول الله وأصحابه ، او في رثاء من استشهد في الغزوات من الأصحاب ، ومن مات من الخلفاء بعد رسول الله او من أصحابه ؛ ويمكن تعليل ذلك بأسباب :

١ – منها أن سبب لينه فيا يتصل بعقائد الإسلام انبهاره بما قال القرآن الكريم ونطق به الرسول الأمين من خطبه ومواعظه وأحاديثه في مثل هذه الأغراض ، ومن المسلم به أن الضعيف إذا أحس من نفسه العجز عن محاكاة ما يأتي به العظيم ازدادت نفسه ضعفاً وخوراً عندما يرغب أن يخوض في حديث من مثله .

٢ – ومنها أن الأصمعي يعلل لينه في غير الهجاء وقوته في الهجاء بأن الشعر نكد يقوى في الشر ويضعف في الخير وهو تعليل مقبول في جملته .

٣ – ومنها ان كثيراً من شعره الإسلامي قاله ارتجالاً عند حدوث الوقائع الداعية إليه .

٤ – ومنها أن كثيراً من شعره الإسلامي قاله بعد ما بلغت منه السن ، والشعر صورة من صور النفس يشيخ إذا شاخت .

٥ – ومنها أن لين شعره الإسلامي علله حسان نفسه فيا روي عنه ، وقد قيل له : « لان شعرك او هرم في الإسلام يا أبا الحسام » ، فأجاب : « ان الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب[١] » .

وعلى الجملة فإن شعر حسان في مناقضة شعراء المشركين والرد عليهم والدفاع عن الإسلام والرسول كان قوياً جزلاً رائعاً ، وكان لا يزال كشعره

---

(٣) ٢٥٦ الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام – خفاجي .

في زمن الشباب قوياً حصيفاً رصيناً ، وكان رسول الله إذا سمع هجاء في أعداء الإسلام يقول : « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » . وكذلك فخره وحماسته لهما في الإسلام قوة شعره في الجاهلية ، فلما استسلم المشركون ودخلوا في الإسلام، وسكت صوت المعارضة سكتت شاعرية حسان ، وأخذ ينظم شعره هادئاً ليناً ضعيفاً لا قوة له ولا فخامة فيه ، كما كان شعره في عهد قوته ، في صدر الإسلام والجاهلية .

وأغراض شعره في الإسلام ما يلي :

١ – المدح : فقد مدح الرسول وخلفاءه وكبار الصحابة الذين أبلوا بلاء حسناً في سبيل الإسلام .

٢ – الهجاء : وقد أجاد فيه حسان ووقفه على هجاء المشركين .

٣ – الرثاء : وقد أكثر منه في رثاء شهداء الغزوات الإسلامية وفي رثاء رسول الله وخلفائه من بعده .

٤ – وصف الغزوات الإسلامية والإشادة ببطولة المسلمين فيها .

٥ – الحكمة وضرب المثل ، وقد تأثر في ذلك بالقرآن الكريم وبلاغة رسول الله صلوات الله عليه وبخبرته وتجاربه الكثيرة في الحياة .

أسلوب شعره وألفاظه :

أسلوب حسان في شعره له ميزات وخصائص واضحة ونستطيع أن نذكر منها .

١ – التأثر في شعره بعد الإسلام بالقرآن الكريم وبالدين العظيم،وبالحديث النبوي الشريف .

٢ – هذا اللين الفني الذي ظهر شوه بعد ظهور الاسلام ، ولذلك حدثناك عن مظاهره وأسبابه .

٣ – كثرة الألفاظ الإسلامية في شعره بعد الإسلام مما أخذه حسان من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

٤ – قلة تهذيبه بشعره ، وقلة مبالغته في تجويده وتنقيحه ، بعكس ما كان عليه النابغة والأعشى وزهير والحطيئة وسواهم من الشعراء المصنّعين الذين سموا « عبيد الشعر » .

وهكذا يختلف شعر حسان وعبارته في شعره عن أسلوب معاصريه في الجاهلية والإسلام بقلة تكلفه وتنقيحه وتجويده بعكس ما كان يفعل النابغة والأعشى والحطيئة ، بل كان حسان يرسل الشعر كما تجود به القريحة ، فيكون منـه الجيّدُ البالغ الغاية والضعيف المقصر البادي التقصير للطاعن والناقد ، ومن هنا نعرف سبب قلة اطراد الغريب في شعره ، فنجد لفظاً غريباً يجانب ألفاظ كثيرة سهلة لينـة ، وربما كان لسكناه المدن ومحادثته أهل الزراعة والصناعة أثر في ذلك ، ولهذا يقول :

لا اسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري

معاني شعر حسان :

كانت معاني شعر حسان في الجاهلية تماثل معاني غيره من شعرائها ، وله معان رائعة قوية في مدح الملوك وتلمس ما يرضيهم ويرفعهم عن طبقة السوقة ، وفي وصف الخمر .

وأكثر معانيه في الإسلام مستمد من معاني القرآن الكريم والآيات التي نزلت في غزوة بدر وأحد والخندق ، وحكاية حجج المشركين والرد عليهم ، ومن ارشاد القرآن ووعظه وحكمته وضرب مثله . والخلاصة أن شعر حسان مظهر من مظاهر تأثير الاسلام والقرآن الكريم في الأدب العربي . ويكاد

هذا التأثير يفقد في شعر الحطيئة مع أنه من المخضرمين ، لأن الحطيئة أسلم ثم ارتد ، ثم عاد الى الاسلام على طمع وجشع ورقة دين ، فلم يتملأ بروح الاسلام كحسان .

ولحسان كثير من المعـــاني الرائعة التي استجادها له النقاد ، ومن ذلك قوله :

وإنَّ امرأً يمسي ويصبح سالمـــاً
من الناس إلا مـــا جنى لسعيد

وقوله أيضاً :

يُغْشَوْن حتى مـــا تهرُّ كلابُهم
لا يسألون عن الســـواد المقبل

وقوله أيضاً :

لو يَدِبُّ الحـــوليُّ من وَلَدِ الذرِّ
عليهـــا لاندبتْهـــا الـــكلومُ[1]

والمبالغة هنا مقبولة ، إذ جعل حسان دبيب النمل على ظاهر الجلد ، فكان من المقبول أن يحصل التأثير .

---

(١) في معناه قول شوقي :
خطرات النسيم تجرح خديـ ـــه ولمس الحرير يدمي بنانه

أما قول امرىء القيس في هذا المعنى :

من القاصرات الطرف لو دب محول
من الذر فوق الإتب منهـــا لاثرّا

ففيه مبالغة شديدة ، إذ جعل النملة تؤثر في جسدها حين تمر عليه من فوق القميص .

وقول حسان أيضاً :

ما إن مدحت محمداً بمقالتي
لكن مدحت مقالتي بمحمد

وهو معنى رائع في أسلوب رفيـع ، ولقد أخذ المتنبي هذا المعنى فقال :

الطيبُ انت إذا اصابك طيبُه
والمـــاءُ انت إذا اغتسلت الغاسلُ

وأخذه أيضاً أبو تمام من قبل المتنبي فقال :

ولم امدحك تفخيماً لشعري
ولـكنني مدحت بك المـديحا

وقد سبق حسان كل الشعراء الى هذا المعنى ولم يأت بعده من زاد فيه وقد حاز الفضيلة فيه لأنه قد تيسر له من غير تـكلف ذلك النوع البديعي

المسمى بالعكس ، وبيت المتنبي فيــه خلل في النظم لا يفهم منه المعنى إلا بجهد .

وقد حاول أبو تمام تحقيق العكس ولكنه لم يوفق إليــه ، إذ جعله كلمة المديح مكان « الشعر » حال دون ذلك .

لقد كان حسان بحق عظيماً في كل جوانبه ، عظيماً في حياته وفي شاعريته وفي موقفه النبيل في الدفاع عن الاسلام والرسول .

حسّانُ بن ثابتٍ في لاميّتهِ المشهُورَة

المناسبة التي قيلت فيها القصيدة :

كان حسان بن ثابت شاعر الخزرج والمدينة في الجاهلية وكان يمدح المناذرة والغساسنة ويحظى بجوائزهم وصلاتهم، بيد ان غرر مدحه كانت في آل جفنة من ملوك غسان ، وَفَدَ على عمر بن الحارث من ملوك غسان ، فوجد عنده النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة ، فقال له عمرو : إني باعثٌ إليك بصلة سنية ، ولا أحتاج إلى الشعر، فاني اخاف عليك هذين السبعين أن يفضحاك، فقال حسان : لا بد من القول ، واستأذن الشاعرين في الإنشاد وأنشد :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل

أبيات القصيدة :

وعدد أبيات القصيدة — كما جاءت في ديوانه — خمسة وعشرون بيتاً .

١ – دار الاحباب :

١ ـ أَسألت رسم الدار أم لم تسأَل
بـــين الجوابي فالبُضَيْعِ فحوملِ

٢ ـ فالمرج مرج الصفَّرين فجاسم
فديار سلمى دُرَّســاً لم تُحلَــلِ

٣ ـ دمنٌ تعاقَبُها الرياحُ دوارسٌ
والمدجناتُ من السماك الأعزلِ

(١ – ٢) اللغة : رسم الدار : بقية آثارها ، والجوابي والبضيع وحومل : اسماء أماكن ، ومرج الصفرين وجاسم : موضعان بالشام، ودرساً : جمع دارسة وهي البالية ، ولم تحلل : لم ينزل بها احد .

المعنى : يستهل قصيدته بذكر الديار والدمن والآثار على طريقة الجاهليين فقال :

أتحدثت الى رسم الدار سألته أن ينبئك الخبر ، وأن يرشدك الى من كان فيها ذات يوم قمراً ساطعاً وكوكباً وضاءاً يغمر هذه الأماكن بهجة وسناء ، فإن كنت لم تسأل فسل ، فتلك المعالم أفصح لساناً وأقوى بياناً .

(٣) اللغة : الدمن : جمع دمنة وهي آثار الدار ، وتعاقبها الرياح : تهب عليها آناً فآناً ، ودوارس : جمع دارسة ، والمدجنات : السحب الكثيرة الامطار.

والسماك : احد السماكين في السماء ، سماك أعزل ، وسماك رامح ، وهما نجمان نيران في السماء ومن في قوله من السماك للسببية ، أي ممطرات بسبب السماك ، لأن سقوطه او طلوعه كان عندهم سبب المطر .

٤ ــ دار لقـــوم قد أراهم مرة
فوق الأعزة عزهم لم ينقـــل

٢ – مدح آل غسان :

٥ ــ لله در عصابة نادمتهـــم
يومـــا بجلقّ في الزمـــان الأول

٦ ــ يمشون في الحلل المضاعف نسجها
مشي الجمـــال الى الجمال البزّلِ

المعنى : هذه الاماكن المذكورة قد درست واستحالت دمنا وآثاراً بالية تتعاور عليها الرياح وتذروها شيئاً فشيئاً وتتعاقب عليها الامطار فتغير من معالمها وتمحو من بقاياها .

(٤) اللغة : لم ينقل : لم يزل ولم يتحول .

المعنى : ان هذه الدار لقوم اقتعدوا غارب المجد ، ولا يزال مجدهم قائماً لم تعد عليه العوادي، ولا يسامقهم احد في عزهم وشرفهم .

(٥ – ٦) اللغة : لله در عصابة : لله عملهم ، وأصل الدر : اللبن والنفس (بسكون الفاء) . ونادمتهم : جالستهم على الشراب وسامرتهم ، وجلق : دمشق ، والحـــلل : الدروع والمضاعف نسجها : التي نسجت حلقتين حلقتين ، والبزل : جمع بازل وهو ما برزت نابه من الإبل ، وذلك عندما يبلغ التاسعة .

المعنى : لله در هؤلاء الخلان الذين كنت أنادمهم وأشاركهم الشراب بدمشق وعليهم دروعهم المضاعفة النسج فتزيدهم مهابة وقدراً .

٧ ــ الضاربون الكبشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ
ضرباً يُطيحُ له بنـــانُ المفصـــل

٨ ــ والخالطون فقيرهم وغنيهـــم
والمنعمون على الضعيف المرمـــل

٩ ــ أولاد جفنة حــول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضـــل

١٠ــيسقون من ورد البريصَ عليهمُ
بَرَدَى يصفّقُ بالرحيـــق السلسل

---

(٧) اللغة : الكبش: سيد القوم وقائدهم، والبيض : جمع بيضة وهي الخوذة تلبس على الرأس ويطيح ينفصل بعيداً ، والبنان : الاصبع او طرفه .

المعنى : هم كماة بواسل يعمدون الى السادة والاقوياء فيهبرونهم هبرة تطيح لها بنان المفصل .

(٨) اللغة : المرمل : الذي فني زاده والتصق بالرمل .

المعنى : يصفهم بالجود والرفق والتواضع .

(٩ - ١٠) اللغة : آل جفنة : من ملوك غسان ، والبريص : موضع بدمشق ، وبردى : نهر دمشق الاعظم . وصفق الرجل الشراب : حوله ممزوجاً من إناء الى إناء ليصفو ، والرحيق: الخمر او اطيبها ، والسلسل : العذب البارد ، وحول قبر ابيهم : كناية عن الاستقرار وانهم دائمو الخصب لا يرتحلون .

المعنى : إنهم يسقون من وفـــد عليهم من ماء النهر ممزوجاً بالخمر العذب البارد المصفى ، مستقرون في اماكنهم لا يغادرونها .

١١ ــ يسقون درياقَ الرحيقِ ولم، تكن
تُدْعَى ولائدُهم لِنَقْفِ الحنظــل

١٢ ــ بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الانوف من الطــراز الاول

٣ – مشيب وقوة :

١٣ ــ فلبثت أزماناً طويـــلا فيهم
ثم ادَّرَكْتُ كأنــني لم افعــل

١٤ ــ اوما تريْ رأسي تغيَّر لونُــه
شمَطاً ، فأصبحَ كالثَّغام المحــول؟

---

(١١) اللغة : الدرياق : لغـــة في الترياق وهو الخمر ، والولائد : جمع وليدة وهي الصبية او الأمة ، ونقف الحنظل : شقه .

المعنى : ان ولائدهم لا تشق الحنظل ليسارهم ولأنهم في خصب ، فهم أغنياء مترفون يسقون الخمر .

(١٢) اللغة : الأحساب : جمع حسب وهو مـــا يفتخر به من مآثر الآباء والاجداد ، وشم الأنوف كنـــاية عن السيادة ، إذ كان العرب صنفين : عبيد وأسياد ، فالعبيد فطس الأنوف والاحرار شمها ، والطراز : كلمة فارسية الاصل معناها هنا الشكل الجيد، وبيض الوجوه كناية عن السماحة .

المعنى : هم أجواد سمحاء لهم اعراق كريمـــة في الحسب والمفاخرة ، انحدروا من محتد جميل وأرومة طاهرة .

(١٣ – ١٤) اللغة : طويلا صفة لمفعول مطلق، أي لبثاً طويلا، وادركت: امتنعت عن =

١٥ _ ولقد يراني مُوعِدِيَّ كأنني
في قصر دومة او سواء الهيكل

٤ – وصف الخمر :

١٦ ــ ولقد شربت الخمر في حانوتها
صهباء صافية كطعم الفلفل

١٧ _ يسعى علي بكاسها متنطف
فيعلني منها ، ولو لم انهل

=اللهو بتاتاً، وأما:شرطية وهي ان الشرطية المدغمة في ما، والشمط بياض الشعر يخالط سواده، والثغام : نبت يبيض ورقه إذا يبس ، وجواب الشرط محذوف أي فلا تجزعي .

المعنى: لقد أقمت بين ظرانيهم أحقاباً ضافية ارفل فيحلل اللهو والرفاهية ثم ارعويت واقلعت عما ارتكست فيه ، فقد تخطيت مرحلة الشباب المرح وجللتني الشيخوخة ووخط الشيب رأسي.

(١٥) اللغة : اوعده : انذره بالشر ، وقصر دومة : حصن ، والهيكل : بيت لعبادة النصارى .

المعنى : ان اعداءه يرونه بعيداً عن ان ينالوه حتى كأنه في حصن حصين .

(١٦) اللغة : الحانوت : الحانة وهي دكان الخمار ، وصهباء : بيضاء اللون لاتخاذها من عنب ابيض ، كطعم الفلفل : لاذعة .

المعنى : كثيراً ما عاقرت ابنة الكرم في حانتها وعببت منصهبائها الصافية ما اشاع في نفسي نشوة الغبطة واللذة والارتياح .

(١٧) اللغة : المتنطف : لابس القرط ، وأعله : سقاه ثانية ، والنهل : من الاضداد يطلق على الروى والعطشى والمراد الثاني .

المعنى : يقدم له الخمر خادم خفيف الروح بديع المظهر ويطوف علي بكاساتها مرة بعد مرة ولو لم أكن ظمآن .

١٨ ـ إن التي ناولتني فرددُتهـــا
قُتلتْ ـ قُتلْتَ ـ فهاتها لم تقتـــل

١٩ ـ كلتاهما جلَبُ العصير، فعاطني
بزجاجـــة أرخاهما للمفصـــل

٢٠ ـ بزجاجة رقصت بما في قَعرهـا
رقْصَ القلوصِ براكبٍ مستعجلِ

٥ – فخر وسيادة :

٢١ ـ نسبي أصيل في الكرام ومِذْوَدي
تَكْوي مواسمُه جُنوبَ المصطلي

٢٢ ـ ولقد تقلدنا العشيرة أمرهـــا
ونَسُودُ يوم النائبات ونعتـــلي

---

(١٨) اللغة : قتل الشراب : مزجه الماء ، وقتلت يدعو عليها بالقتل ولم يقصد الشر هنا .

(١٩) اللغة : كلتاهما : أي الخمر الصرف والممزوجة ، وعاطني : مفاعلة من الإعطاء .

المعنى : ان الماء والخمر ناتجان عن عصر شيء ، فالمـــاء عن عصر السحاب والخمر عن عصر العنب .

(٢٠) اللغة : رقصت الكأس بما في قعرها : صعدت الفقاقيع من اسفل الى أعلى لشدة ثوران الخمر فيها ، والقلوص / الناقة .

(٢١) اللغة: المذود: اللسان، ومواسم: جمع ميسم وهو آلة يكوى بها، والمصطلي: المستدفيء.

المعنى : إنني عريق المحتد كريم النسب ، ولساني يشبه المكواة التي تكوى من تصيبه .

(٢٢) اللغة : العشيرة : بنوأبي الرجل الادنون او قبيلته والجمع عشائر ، والمعشر كمسكن : الجماعة ، والنائبات : الشدائد .

المعنى : ونقتعد غارب الزعامة في القبيلة ونتغلب على اعدائنا .

٢٣ ــ ويسود سيدُنا جحاجحَ سادةٍ

ويصيب قائلُنـــــا سواء المفصل

٢٤ ــ ونحاولُ الامرَ المهمَّ خطابةً

فيهم، ونفصل كل أمر معضـــــل

٢٥ ــ وتزور أبواب الملوك ركابُنا

ومتى نحكم في البرية نعـــدل

---

(٢٣) اللغة : سيد جحجاح : مسارع في المكارم ، وسواء : وسط ، والمفصل كمسجد : كل ملتقى عظم في الجسد .

المعنى : ويتفوق السيد منا على كل عظيم همام . بما لنا من قوة وصولة، وحصافة عقول وألمعية أفكار ، حتى إن المرء منا إذا نطق أصاب شاكلة الصواب .

(٢٤) اللغة : المهم : المشكل .

المعنى: ولنا من نضوج آرائنا وتوقد قرائحنا وفصاحة ألسنتنا ما نحل به مشكلات الأمور ومعضلاتها .

(٢٥) اللغة : الركاب : الإبل ، والبرية : الخلق .

المعنى : ونحن عظماء ، اندادنا الملوك والكبراء والسادة ، فاذا فكرنا ان نزور احـداً فإننا لا نتفيأ الطعام وإنما نقصد الوجوه والهامات (فهو كناية عن عظمتهم) وإذا ألقي الينا زمـام الحكم عدلنا بين الناس .

دراسة للقصيدة

(أ) الغرض :

الغرض الذي تستهدفه القصيدة هو مدح عمرو بن الحارث الغساني وقومه، فان الشاعر وفــد عليه وعنده النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة ، وأنشد القصيدة على مرأى ومسمع منهما .

(ب) المعاني :

وابرز المعاني في هذه القصيدة تتجلى فيما يأتي :

١ — استهل القصيدة بذكر الديار ومسالة رسومها وأن الرياح والأمطار تتعاقب عليها فتعفي من آثارها وتخفي من معالمها ، لأنهم أهــل انتجاع وظعن ، فلا يكاد الشاعر يمر بمكان حتى يذكر عهداً قضاه به ، وأحباء ترحلوا عنه ، فتهجيه الذكرى وتحييه .

٢ — ثم يتحدث عن ندمائه في سابق الزمان وهم ممدوحوه من آل غسان، وأنهم كماة مغاوير ، وأجواد مشاهير ، يحسنون الرد ، ويكرمون الضيف ، ويعيشون في بحبوحة من العيش .

٣ — وبين أنهم انحدروا من اعراق كريمة وأرومة ماجدة ، وأنهم سادة شم الانوف من اعلى الناس قدراً وارفعهم شأناً .

٤ — وقال : إنه لبث بينهم حيناً من الدهر يسرج أفراس المجون ويحتسي كؤوس الملذات ، ارعوى فجأة وأقلع عن هواه ، وودع عهود صباه ، حينما رأى الشيب يخط رأسه .

٥ — ثم يذكر أيام لهوه حين كان يسيم سرح الشهوات ويصف الخمر

وساقيها المتنطف ، لابس القرط ، وانه كان يسقيه فيشيع في نفسه النشوة والغبطة .

٦ – ويتحدث عن مجـد قومـه وسيادتهم وتفوقهم على أقرانهم وظهور امرهم على السادة البهاليل وان صلتهم وثيقة العرى بالملوك والاقيال ، وانهم عدول إن تقلدوا أعنة الحكم قضوا بين الناس بالقسطاس المستقيم .

٧ – ويتجلى في هذه المعاني الوضوح وقرب المورد ومجانبتها المبالغة والغلو وصدورها عن الفطرة التي يعنيها ان تتعمق وان تحلق في الآفاق بقدر مـا يعنيها تصوير الحقائق وجلاء الواقع .

(ج) الاسلوب :

وإذا تأملنا القصيدة وأسلوبها ألفيناه جزل اللفظ رصين العبارة محكم النسج فحل التركيب ، يجنح الى الايجاز ويقل فيه المجاز ، وقد يأتي فيـه برائع الاستعارة ، وبديع الاشارة ودقيق الكناية ، وبما هو جليل الغاية ، وان شئت فانظر الى قوله : « اولاد جفنة حول قبر ابيهم » « فانه كناية عن استقرارهم وعظم مكانتهم وعدم رحيلهم » ، او قوله : « شم الانوف .. » فانه كناية حلوة عن سيادتهم ورفعة شأنهم ، وقوله : «... ومذودي تكوى موآسمه جنوب المصطلى » فانه استعارة رائعة تجعل من لسانه احياناً شيئاً لاذعاً مخيفاً كأنه مكواة تكوي من تصيبه .

(د) ملامح البيئة في القصيدة :

حسان بن ثابت شاعر مخضرم عاش مائة وعشرين عاماً قضى ستين ربيعاً منها في الجاهليـة ، ومثلها في الاسلام ، وكان في الجاهلية يقول الشعر كما يشاء له هواه ، ويرخي لنفسه العنان ، ويرتل ما يشاء من الألحان ، فـكان شعره في جاهليته أقوى من شعره في الاسلام .

والقصيدة التي بين ايدينا درة من درر حسان التي انتظمها عقد بيانه في

الجاهلية ، ونستطيع ان نستوحي منها صورة واضحة للعصر الجاهلي الذي عاش فيه حسان جزءاً من حياته :

١ – فلقد استهلها حسان بذكر الديار والرسوم والآثار واسماء الاماكن المختلفة على طريقة الجاهليين .

٢ – وذكر الدروع المضاعف نسجها ، والمطايا والخمر وندمانها وكاساتها والاحساب والانساب والانوف الشم والاصطلاء بالنار ، على عادة الجاهليين في الإلمام بمثل هذه المعاني والأغراض والاوصاف في القصيدة .

٣ – وافتخر حسان بالسيادة والقوة والجـاه ومعرفـة الملوك والوفادة عليهم وبزيارة ركابه لأبواب الاقيال والعظماء وذلك فخر الشعراء الجاهليين ومنهجهم .

٤ – ونجد في القصيدة جزالة الاسلوب ، ومتانة التعبير ، مع جنوح الى الايجاز ، وزهد في ألوان الخيال والمجاز ، ومع تردد الألفاظ بين الوضوح والغرابة ، وذلك مسلك الجاهليين لا يستبد بهم مذهب واحد ، ولا يعرفون اتجاها بعينه .

وبعد فذلك حسان في قصيدة من غرر شعره ، ودرة من درر نظمه . وبالله التوفيق .

مصادر الكتاب

مراجع قديمة :

١ – سيرة ابن هشام
٢ – الروض الأنف للسهيلي
٣ – سيرة ابن اسحاق
٤ – الطبقات الكبرى لابن سعد
٥ – الإصابة لابن حجر
٦ – تاريخ الإمام الطبري
٧ – تفسير الامام الطبري
٨ – الكامل للمبرد (٢٨٥ هـ)
٩ – البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥ هـ)
١٠ – الحيوان للجاحظ =
١١ – رسائل الجاحظ
١٢ – طبقات الشعراء لابن سلام (٢٣١ هـ)
١٣ – الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٣٦ هـ)
١٤ – قواعد الشعر لثعلب (٢٩١ هـ) – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي

١٥ – البديع لابن المعتز – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي
١٦ – العقد الفريد لابن عبد ربه (٣٢٩ هـ)
١٧ – زهر الآداب للحصري (٤٨٣ هـ)
١٨ – الامالي لأبي علي القالي (٣٥٦ هـ)
١٩ – الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني (٣٥٦ هـ)
٢٠ – خزانة الادب للبغدادي
٢١ – المثل السائر لابن الاثير (٦٢٩ هـ)
٢٢ – العمدة لابن رشيق (٤٦٠ هـ)
٢٣ – الموازنة للآمدي (٣٧١ هـ)
٢٤ – الوساطة للقاضي الجرجاني (٣٩٢ هـ)
٢٥ – الصناعتين لابي هلال العسكري (٣٩٥ هـ)
٢٦ – ديوان المعاني لابي هلال العسكري
٢٧ – الاتقان للامام السيوطي (٩١١ هـ)
٢٨ – كتب الصحاح الستة
٢٩ – نهج البلاغة للامام علي
٣٠ – إعجاز القرآن للباقلاني (٤٠٣ هـ) – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي
٣١ – المتشابه في القرآن – محمد علي حسن الحلي
٣٢ – المتشابه في القرآن – لابن الاسكافي
٣٣ – المتشابه في القرآن – للقاضي عبد الجبار
٣٤ – تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي – تحقيق الدكتور احمد مطلوب
٣٥ – كتب التفسير والحديث
٣٦ – طبقات الشعراء لابن المعتز – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي
٣٧ – فحولة الشعراء للأصمعي – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي
٣٨ – عيون الاخبار لابن قتيبة (٢٧٦ هـ)

مراجع حديثة :

١ ـ حياة محمد لهيكل

٢ ـ عبقرية محمد للعقاد

٣ ـ على هامش السيرة لطه حسين

٤ ـ عبقريات العقاد الاسلامية

٥ ـ الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام ـ محمد عبد المنعم خفاجي ـ الطبعة الاولى ١٩٤٩ م

٦ ـ الادب العربي بين الجاهلية والاسلام ـ محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون

٧ ـ أعلام الادب العربي ـ محمد عبد المنعم خفاجي

٨ ـ الاسلام دين الانسانية ـ محمد عبد المنعم خفاجي

٩ ـ الاسلام دين الانسانية الخالد ـ محمد عبد المنعم خفاجي

١٠ ـ تاريخ الادب العربي (العصر الاسلامي) شوقي ضيف

١١ ـ تاريخ الأدب العربي للزيات

١٢ ـ الوسيط للاسكندري وآخرين

١٣ ـ المفصل ـ والمجمل في تاريخ الادب العربي ـ لطه حسين وآخرين

١٤ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان

١٥ ـ تاريخ الادب العربي لبروكلمان ـ ترجمة د. عبد الحليم النجار ـ ظهر منه ثلاثة اجزاء

١٦ ـ الفن ومذاهبه في النثر ـ شوقي ضيف

١٧ ـ الفن ومذاهبه في الشعر ـ شوقي ضيف

١٨ ـ جمهرة رسائل العرب ـ احمد زكي صفوت

١٩ ـ جمهرة خطب العرب ـ احمد زكي صفوت

٢٠ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ـ شكري فيصل
٢١ ـ الاسلام والشعر ـ يحيى الجبوري
٢٢ ـ شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه ـ يحيى الجبوري
٢٣ ـ دراسة في سيرة ابن إسحاق ـ د. عبد العزيز الدوري
٢٤ ـ أدب الشيعة ـ د . عبد الحسيب طه
٢٥ ـ الخطابة العربية في عصرها الذهبي ـ احسان النص
٢٦ ـ في الأدب الاسلامي ـ محمد خلف الله
٢٧ ـ الشعر الغنائي في الأمصار الاسلامية ـ شوقي ضيف
٢٨ ـ مأثورات نبوية ـ محمد عبد المنعم خفاجي
٢٩ ـ حسان ـ شاعر النبي ـ عبد الله أنيس الطباع ـ الحطيئة : له أيضاً
٣٠ ـ نظرات في الأدب في عصر صدر الاسلام ـ للدكتور المرحوم محمود فرج العقدة
٣١ ـ الأدب العربي وتاريخه ـ محمد عبد المنعم خفاجي ـ ٤ أجزاء
٣٢ ـ تراثنا الأدبي ـ جزءان ـ محمد عبد المنعم خفاجي
٣٣ ـ تاريخ الأدب في صدر الاسلام وبني أمية ـ عبد الله عفيفي
٣٤ ـ تاريخ الأدب العربي ـ الجزء الثاني ـ السباعي بيومي
٣٥ ـ الأدب العربي وتاريخه ـ الجزء الأول ـ محمود مصطفى
٣٦ ـ فجر الاسلام ـ أحمد أمين
٣٧ ـ شعر الفتوح الاسلامية ـ لنعمان عبد المتعال القاضي
٣٨ ـ إعجاز القرآن للرافعي
٣٩ ـ الادب العربي وتاريخه في عصر صدر الاسلام وبني أمية ـ محمد الجندي جمعة .
٤٠ ـ الفكر الاسلامي المعاصر ـ غازي التوبة

٤١ ـ الفكر الاسلامي الحديث ـ محمد المبارك
٤٢ ـ أطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والاسلام ـ علي الجندي

مراجع أخرى :

٤٣ ـ مجالس ثعلب ـ جزءان
٤٤ ـ مروج الذهب ـ للمسعودي (٣٤٦ هـ)
٤٥ ـ التنبيه والإشراق ـ للمسعودي أيضاً
٤٦ ـ الفهرست لابن النديم
٤٧ ـ الشفاء ـ للقاضى عياض
٤٨ ـ ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان ـ محمد عبد المنعم خفاجي

دواوين شعرية :

١ ـ ديوان حسان بن ثابت الانصاري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
٢ ـ ديوان أبي الاسود الدوجي ـ تحقيق محمد حسن آل ياسين
٣ ـ ديوان الخنساء
٤ ـ ديوان كعب بن مالك ، تحقيق سامي مكي العاني
٥ ـ ديوان النابغة الجعدي
٦ ـ ديوان الحطيئة
٧ ـ ديوان معن بن أوس
٨ ـ ديوان كعب بن زهير
٩ ـ شرح قصيدة بانت سعاد ـ لابن هشام

١٠ ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري
١١ ـ المفضليات للضبي (١٧٠ هـ)
١٢ ـ جمهرة أشعار العرب ـ لابي زيد الانصاري (٢١٤ هـ)
١٣ ـ ديوان العباس بن مرداس السلمي ـ تحقيق يحيى الجبوري
١٤ ـ ديوان أبي الاسود الدؤلي ـ تحقيق محمد حسن آل ياسين
١٥ ـ وضاح اليمن (قطوف الاغاني)

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
إعجاز القرآن	٦٣
أثر القرآن في الادب العربي	٧٥
الصورة الادبية في القرآن الكريم	٧٩
الفصل الثالث ـ البلاغة النبوية	٩٩
الفصل الرابع ـ النثر في صدر الاسلام	١١٣
الخطابة الاسلامية	١١٧
صور من الخطابة الاسلامية	١٢٣
من أعلام الخطباء والبلغاء في عصر صـدر الاسلام « الامام علي بن أبي طالب ـ حياته »	١٣٥
عصر ذهبي للخطابة	١٤٩
الكتابة في صدر الاسلام	١٥٢
الفصل الخامس ـ الشعر في صدر الاسلام	١٥٩
شعراء المدر والوبر	١٧٢
عناية الخلفاء بالشعر	١٧٥
صور من الشعر في عصر صدر الإسلام	١٧٨
الحطيئة يهجو الزبرقان	١٩١
الوحدة العضوية للقصيدة	١٩٣
دراسة للقصيدة	١٩٨
الفصل السادس ـ حسان شاعر الاسلام	٢٠٣
حسان بن ثابت في الامية المشهورة	٢١٨
مصادر الكتاب	٢٢٩